



عراف القرية

رواية

محمد سيد


دارق

(إهداء)

إلى أبي.. كل يوم أفقدك أكثر من الأمس، ولكني سمعت يوماً أن البكاء يزعج من فارقونا فسامحني إن نزلت دموعي سرّاً فهي شوقاً إليك لا اعتراضاً.. سلام إلى عينيك النائمتين منذ مدة طويلة، وسلام على رائحتك المختبئة في جوف الأرض، جعلك الله في جنات النعيم ورزقني رؤيتك في الجنة.

(تمهيد)

يجلس الصبي (المعتصم) ابن الأربعة عشر عامًا، شاردًا على مقعد مهترئ بقطار مزدحم وبجانبه أمه وعلى ملامحها الحزن وهي تحمل أخاه الصغير والذي لم يتجاوز الأربعة أعوام صرخ الطفل فضمته لتهدئه، شرد الصبي متذكرًا ما حدث منذ بضع ساعات لأبيه وهو يطل من خلف زجاج باهت على تلك الأعمدة المتلاحقة، تذكر آخر ليلة في قرية (الحسنية) وكيف طردوا جميعًا منها بلا رحمة، تذكر وهو عائد من مدرسته يحمل حقيبته المدرسية على ظهره متوجهًا إلى منزله، يرى الرجال مجتمعين في جمعية البلدة ورجل ضريير يخطب فيهم، لم يكثر الصبي لما يراه أمامه فهو يدرك أنهم مجتمعون بسبب وفاة الطفلة الصغيرة بالأمس يقولون إنها سُحرت، ولكن ما شغل باله في ذلك الوقت هو أخوه الصغير، أقبل على منعطف الترعَة ليمر على بيوت طينية حتى يصل إلى بيته، شعر بنوعٍ من القلق في منزله فوجد أباه يسرع في وضع كتبه داخل حقيبته وأمه تهزول أيضًا في جمع ما تقدر عليه من مستلزمات البيت، تسَلَّ داخل غرفة والده فشعر به الأب وابتسم ونقّر عما كان يفعله ثم اقترب من (المعتصم) وهو يحمل في يديه خاتمًا قديمًا

ومجلدًا صغيرًا، أدخل الخاتم في إصبع ابنه وبعد ذلك فتح
سحاب حقيبته المدرسية ووضع مجلدًا ورقيًا صغيرًا ثم نظر
إليه وقال:

- إذا جاءت نهايتي يا ولدي وأظنها قريبة لا تصدق ما قيل
عني، وأنا لست بملاك ولا شيطان ولكني أريد أن أقول لك
نصيحة، الناس يا ولدي في بلدتنا هذه يصنعون نار الشر
ويئفخون فيها حتى تعلو وترتفع لتحرقهم وبعد ذلك
يحاولون إخمادها، ولكن ليس كل مرة سئخد النيران.. لقد
أعطيتك هذا الخاتم المجيد وتركت لك هذا المجلد، فإذا كان
حظك غير حظي فستكون من المُبشرين.

ترك الأب ابنه وعاد ليسرع في جمع أغراضه وخرج
(المعتصم) وهو ينظر إلى الخاتم بغرابة، حينها سمع صوت
جموع أهل القرية وهم يحاولون تكسير بابهم الخشبي
مرددون «سنحرقك يارجل الشيطان، سنحرقك يا ساحر..
اكسروا الأبواب».

وقف الأب في حيرة من أمره ينظر يمينًا ويسارًا دون
جدوى وخلفه زوجته وهي تحمل ولده الصغير، بينما
(المعتصم) يراقب ذلك المشهد بارتعاد شديد ومعصم يده

يرتعش كالمصعوق من الكهرباء، وفي أذنيه صوت صراخ أخيه وبعد لحظات معدودة كسر الباب وبدأوا يدفعون ويجزّون أباه على الأرض بلا رحمة غير مكتزّنين لصرخاته المرعبة التي تدوي في أركان منزله هلعًا من مصيره المجهول ثم سحبوا أمه بهدوء رأفة بالطفل الصغير التي تحمله ولكنهم رغم ذلك يلعنونها بأقبح الألفاظ. بدأ الجموع بضرب أبيه بالسكاكين فسالت دماء أبيه وهو يصرخ من ألمه، وبعد ذلك سكبوا عليه البنزين.. حاولت أمه الدفاع عن زوجها ولكنهم سرعان ما قذفوها بعيدًا، وأشعلوا النار في أبيه وهم يصيحون قائلين:

- مُت يا عدو الله.

بكى (المعتصم) بحرقة وهو يحاول أن يطفى النار عن أبيه برغم النار التي تلتهم جسد أبيه، ظلّ أهل القرية يهللون ويدفعونه للخلف حتى يحترق أبوه دون مساعدة أحد فأصابته نار أخرى جعلت أضلاعه تحترق وقلبه تشتعل به النيران، كانت عيناه مشتعلتين كالجمر تفتتت الأسى حتى تفحم أبوه أمام عينيه وصدى صراخ أمه والطفل الصغير يدوي في أذنيه يدق كجرس الكنيسة. اجتمع أهل القرية وحاصروه وأمهم وأخاه الرضيع ولم يقرّروا بعد ماذا يفعلون

بهم حتى تكلم شاب يافع يدعى (محفوظ) وقال:

- أظن أن هذا الصبي ممسوس.

صاح الجموع مطالبين بقتله بدون رحمة حتى تكلم والد محفوظ فهو كهلٌ ضريزٌ حكيمٌ لحيته بيضاء، نال السن من عافيته وهو مشهور في القرية (الحسنية) ويدعى الشيخ (سعيد):

- دعوهم يرحلون، ولكن حرمت عليك القرية يا نفيسة أنت وأولادك، وإذا رآكم أحدٌ في القرية وعلمنا.. سيكون مصيرك ومصير أولادك مثل زوجك. أفهمتِ يا امرأة؟ هذا ليس هراء، هذا أمرٌ من عمدة البلدة الحاج عطية الكيال.

أنهى شروده في القطار على صوت أمه وهي تقول:

- أتأكل يا ابني؟

- لا أريد يا أمي، لا أريد.

ثم تذكر أمر هذا المجلد والخاتم الذي يضعه في يده

فمسح على الخاتم بيده وهو يتأمله بدهشة، ثم فتح سحاب حقيبته ليرى ماذا وضع والده، وجد كتابًا قديمًا مغلفًا بغلاف جلدي أسود وبداخله ورقة بها مجموعة من الكلمات فظل يقرأها بعينيه «لا سبيل للتحرر سوى بالتضحية والدماء والكذب والنفاق، لم يعد للمشاعر وجود بعد الآن ولا يوجد مكان للشفقة، الآن ليس لديك حرية الاختيار فأنت في مستقر أسياذ الأرض وسلاطين الظلام.. أنت في أرض النعمان، فعليك الخضوع وتكون مسخًا لا يشعر لكي تتحرر». رفع حاجبه وهو ينظر للورقة بغرابة ولم يفهم ما قرأه للتو فوضع الورقة في الحقيبة مرة أخرى ثم نظر لأمه قائلاً:

- لمَ قتلوه يا أمي؟ وهل أبي ساحرٌ كما يزعمون؟ أجبييني أرجوك.. أبي من سحر تلك الفتاة حقًا؟

استشاطت أمه غضبًا وهي تعنفه:

- لا تتلفظ بهذا الكلام مرة أخرى وإلا دفعتك أسفل هذا القطار فلم أعد أحتمل هذا الكلام.

تحدث وهو ناظر لها بعينٍ قاتمة:

- لماذا؟ هل الحقيقة صادمة لهذه الدرجة؟ أجيبيني. أبي
ساحر أليس كذلك؟ هو من قتل تلك الفتاة؟

ظل يطلق أسئلته لأمه حتى تكلم مرة أخرى بنبرة معاتبة:

- أنا لست صغيرًا يا أمي كفى.. كفى معاملتك بهذه الطريقة
فأنا في سن الثانية عشرة والآن طردنا كالجرذان، ووالدي
تمثل بجثته أمامي ورمي في البيت وحرق، حرق ولم يرق
قلب أحد، حرق والدي يا أمي ولم نعلم حتى الآن إلى أين
وجهتنا.

نظرت له الأم باحثة عن تلك الكلمات المُبعثرة بذهنها ولا
تستطيع تجميعها وبدا على تعابير وجهها ملامح الاضطراب
قائلة:

- ليس كل ما تتمناه يا ولدي تدركه، وليس كل ما تتمناه هو
خير لك، أحيانًا يا ولدي يفعل الشخص منا أشياء ليست
باختياره الخردون أي ضغط عليه أو إكراه، أتعلم؟ خيرًا على
المرء أحيانًا الصمت، أريد أن أصمت يا المعتصم.

نظر إليها بغضب وهو يصيح في وجهها:

- وإلى متى سنصمت يا أمي؟ إلى متى؟

فنظر بعض من الركاب بدهشة نظرًا لصوته المرتفع فخفض
صوته ثم أخذ نفسًا عميقًا وتنهد قائلاً:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

- إلى خالتك.

- سننزل المحطة القادمة إذًا؟

أومات برأسها بالإيجاب في إشارة منها أنها تريد أن تلوذ
بالقليل من الصمت.

ساد الصمت لفترةٍ ونظر (المعتصم) للحقيبة مرةً أخرى ثم
حملها وأفرغ ما فيها، فأخرج المجلد الصغير الذي وضعه له
والده وفي نظراته بعض من الارتياب، تأمله ردحًا من الزمن
ناظرًا له بحذرٍ شديدٍ ثم قام بفتحه وهو يحاول جاهدًا فك
تلك الشفرات الغريبة.

خرج (المعتصم) من تركيزه على صوت أمه وهي منفجرة

وتعلو بعينيها نظرات الخوف والرهبة:

- من أين جئت بهذا الكتاب الملعون؟ ومن الذي أعطى لك خاتم أبيك؟

أخذت تتحدث كثيرًا دون فائدة بعاطفة الأم التي تخاف على أطفالها وتهلّل لتأخذ منه تلك الأشياء، ابتعد عنها (المعتصم) في خفة وترك الكرسي وهو يقبض بيده على الكتاب قائلاً:

- حقًا؟! أتظنين يا أمي أنني سأعطيك سر أبي بتلك السهولة؟ يجب عليك إخباري كل شيء قبل أن أفعل.

نظرت إليه أمه ولا يوجد لديها حيلة سوى أن تقص عليه ما يريد:

- حسناً، سأروي لك حكاية أبيك من البداية، وكيف تزوجته حتى اليوم المشؤوم ولكن لدي شرط واحد!

نظر لها باندهاش متسائلاً:

- وما هو؟

- أن تعطيني الخاتم وهذا المجلد!

أوماً (المعتصم) برأسه وجلس على كرسیه مستمعاً لما
ستقوله أمه باهتمام...

(الفصل الأول)

يقولون إن الإثم قادر على تحويل حياتك لجحيم، ويقولون إن بداية الفجور واللعنات تبدأ بخطوة واحدة يعتاد عليها المرء حتى تصبح جزءًا لا ينفصل عنه، ولكن النتيجة دائمًا تظل واحدة هي الهلاك والدمار.

وُلد (رجب الطايح) في قرية (الضاحي) وهي من قرى الأرياف وكعادة أهلها يتميزون بالطيبة وكرم الأخلاق، ولكنهم أيضًا تنتشر فيهم المفاهيم الخاطئة، وتلك المفاهيم تتحول لعاداتٍ وتقاليد متداولة يعتادون عليها وتُعتبر شيئًا عاديًا بالنسبة لهم برغم عدم صحتها وجهل الأمور التي تثبت أن تلك الأفعال ليست إلا حماقات وسفه، وأهم المصطلحات الفاسدة في تلك القرية مصطلح العراف، اشتهر به كل من تُسوّل له نفسه وعمل بالسحر، السحر الذي صار بمثابة شعار لقرية الضاحي وأمر مسلمٌ به كالطعام واللباس، إذا وجدت في نفسك علة لا تذهب إلى طبيب بل للعراف، إذا سُرقَت لا تذهب إلى الشرطة بل اذهب للعراف، وإذا تعدت ابنتك سن الخطبة بالتأكيد فعليك وعلى العراف، باختصار شديد العراف هو مالك مفاتيح القرية ومتربع على أعلى قمة في

هرمها.

وفي مساء ليلة بعد صلاة العشاء قطرات الأمطار أضافت لمسةً حزينةً في خلقة الظلام، انسكب (رجب) على الأرض وهو يسدل أكمام جلبابه الفضفاض تاركًا فأسه من شدة التعب فهو يعمل في أرض أبيه مع أخيه (عثمان) تلك الأرض التي توارثوها لأجيال، مسح جبينه المليء بالبقع الداكنة وغمر في تفكيره بخيال جامع لمستقبل ابنه القادم، فزوجته (نفيسة) على وشك الولادة، لم يكن بينه وبين زوجته مودة فعلاقتها لم تكن سوى زواج تقليدي أجبر عليه بدافع من والده (الطايح) حينما استثناه عن أولاده الأكبر منه سنًا وتقدم لخطبته من بنت عمه (نفيسة) ظنًا منه أن إصلاح حال ابنه في زواجه وذلك بعدما علم أن (رجب) أدمن الخمر واتخذ أحضان البغايا الرخيصات مأوى له، ظل ساهيًا حتى سمع صوت أخيه (عثمان) يدوي بالصراخ والنحيب، فنهض من نومته على الأرض وبدأ يبحث برأسه يمينًا ويسارًا عن مكان الصوت وينادي:

- عثمان أين أنت؟

سمع (رجب) أنين أخيه آتيًا من خلفه فالتف بجسده فوجد

أمامه أشجار البرتقال فعزم على تخطّيبها وحمل فأسه وبدأ يجتاز الأشجار، وكلما ترجّل ازداد صدى نسيج أخيه حتى اقترب منه فوجده صريعًا أرضًا ومستندًا بجسد على إحدى الشجيرات وبجانبه غراب شديد السواد فاندفع (رجب) إليه مسرعًا وحينما اقترب منه وجده يسعل والدم ينزف من فمه، وقبل أن يخطو خطوةً أخرى شعر بأن شيئًا يراقبه من خلف تلك الشجرة. ظلّ يراقب الشجرة محتفظًا بتلك الأمتار الفاصلة بينه وبين (عثمان) وقال:

- عثمان ماذا يحدث؟

تأمل بغرابة ذلك الشيء الذي يقطن خلف الشجرة؛ فلاحظ شخصًا عيناه بيضاوان تلمع كالنجوم تنظر باتجاهه، لم يستطع (رجب) تمييز ذلك الشيء الذي يُشبه الظل إلى حدّ كبير، خرج ذلك الظل من خلف الشجرة ورفع يديه للسماء فانبعث إليه سربٌ من الغربان، ثم تقدّم بخطوات ناحية (عثمان) الفُصرع أرضًا! وأصبح يردد كلمات غير مألوفة لمسامع (رجب) والغربان من فوقة تطير بشكل دائري، نبض قلب (رجب) نبضات متسارعة ليضخ خوفًا يجتاح روحه من أثر ما يحدث أمام عينيه، وفي لحظة انحنى الظل برأسه بشكل دائري ليحديق بـ(رجب)!.، تسمر مكانه لثوانٍ من أثر

الصدمة والخوف يتملكه من نظرة الظل التي تخترق قلبه قبل عينيّه وجعلت الدم يتجمد في عروقه، ظلّ يرجع بخطواته للخلف حتى صدرت من أخيه صرخة قوية مزقت أحشاء السكون، فبدأ يركض وهو ينظر وراءه مستمعًا لتلك الأصوات الآتية من خلفه، وفي غضون لحظات وجد الغربان تتبعه وهي تصدر نعيقها، ظلّ يركض حتى غاب الصوت فتوقف فجأة وهو مذهولٌ عندما وجد ذلك الظل بعينيّه البيضاء في انتظاره على نحو بضعة أمتار فجفّ حلقة وقال!

- مَنْ أنت؟ مَنْ أنت وماذا تريد؟

تقدّم الظل خطوةً واحدة كانت كفيلة أن تجعله أمام عينيّه، فتبددت أحشاؤه من الخوف عندما نظر لأعين الظل مباشرةً! وتسمر في مكانه وهو لا يقدر على الحركة وكأن لسانه قد عُقد وقلبه قد ذاب، الرؤية لديه أصبحت ضبابيةً ولم يقوَ على الصمود أكثر من ذلك فأغشي عليه!

استفاق من غيبوبته ليجد نفسه ملقى على الأرض وبجانبه أخوه (عثمان)، نهض (رجب) واتجه ناحية (عثمان) فوجده قد فارق الحياة، تحسس جسده، وعيناه تدور في كل اتجاه! حتى سمع صوت الغربان مرة أخرى! فهرب من الأرض سريعًا

وعاد إلى بيته وهو يهرول ويزمل ثيابه، دفع الباب الخشبي بساقيه وهو يقول شيئًا واحدًا:

- عثمان قُتِل، عثمان قُتِل أمام عيني!

صرخت النسوة التي تقطن في البيت فسمعهم الحاج (الطايح) من فراشه وقام من على سريريه بهاجس فجائيًا كالملسوع من النار متسندًا على عصاه، دلف إليه في خشية مما لا يود سماعه فاقترب من (رجب) الذي كان يرتعد بجسده على الأريكة ملتفًا بغطاء قماشي قائلًا له:

- ماذا حدث؟

حدق (رجب) في عين أبيه وهو يقول متلعثمًا:

- الأرض.. الأرض..!

لم يفهم (الطايح) أيَّ شيء من صوت اصطكاك أسنان ابنه ورعبه الشديد، فأمر ولده (حسان) أن يتجه لأرضه ليعرف ما حدث، كانت عائلة الطايح من أعيان القرية ويخشاه عددٌ لا بأس به من أهلها بسبب العمودية والتي انزاحت عن عائلتهم

فقط قبل عقدٍ من هذا الحادث.

ظل (الطايح) متكئًا على كرسيه بعباءته السوداء وشنبه الأثيب الكبير واضعًا يده على عصاه محددًا في ولده (رجب) الذي يتلوى على الأريكة كالثعبان، ولا يسمع غير أنين بعض النسوة قلقات على ابنهن (عثمان)، لم يستغرق الأمر الكثير من الوقت حتى دق الباب فعمّ الصمت والهدوء الأجواء، تحرك (الطايح) بخطوات بطيئة ناحية الباب وعندما فتحه وجد (حسان) ابنه أمامه ويبدو عليه أثر الارتباك ويرتعش بشدة، نظر لأبيه وهو يبلع ريقه بصعوبة بالغة:

- يجب أن تحضر معي يا أبي على الفور.

خرج من بيته برفقة ابنه، والسكون كان كسوة الشوارع والطقس بارد، مما جعل أغصان الأشجار تتراقص في جباب الأراضي المتطرفة، تتجلى الكلاب والقطط أمام أعينهم في الطريق إلى آثار الجدران المتهالكة خشية من الرياح حتى وصلوا إلى أرضهم.

سمع (حسان) أصوات صدى نعيق الغربان والصراصير الليلية، وأخذ نفسًا عميقًا وهو يشاور بيده على شجرة في

منتصف الأرض، فاندفع إليها والده دون تفكير وهو يسرع في خطواته وابنه يتبعه، وكلما اقترب كلما تبطئ خطواته نحو تلك الشجرة حتى وجد ابنه (عثمان) صريعًا تحت ضلعها، ركع (الطابع) على الأرض وأنفاسه تتصاعد وهو يتطلع لمنظر جثة ابنه.. منظر يقشعر له الأبدان، العين ساكنة ومحدقة لأعلى بنظرة مفزعة ولون البشرة تبدل للون الشاحب وشعره أصبح جافًا ومجعدًا مائلًا للون الرمادي، الذهول أصبح يكتنفه وبرزت عروق يده من الخوف وهو يهز برأس ابنه كإشارة للنفي غير مصدق لما يراه ويردد بصوت عالٍ إلى (حسان) الواقف خلفه.

- لا.. عثمان لم يموت، هذا غير حقيقي هذا هراء.

اقترب منه ولده قائلاً بصوت هامس:

- إنا لله وإنا إليه راجعون يا أبي.

رامقه (الطابع) بنظرة حادة وهو يردد:

- لم يموت.. ولدي لم يموت، أتفهم؟

أشاح ببصره ليعود النظر لجثة ولده (عثمان) مرة أخرى، فسمع من خلفه نعيقًا مشؤومًا، التفت (الطابع) لمصدر الصوت فوجد غرابًا أسود يقف بالقرب منه ينظر له بعين حمراء ويصدر نعيقه مما جعل جسده يهتز هزة فجائية جعلته متوترًا بعض الشيء، حاول (الطابع) أن يستعيد قواه وهو يستعيد ويبسمل لكنه رأى فجأة دون مقدمات غريان ينظرون إليه بشكل مخيف وصوتهم يزداد نعيقًا، بدأوا يقتربون منهم ببطء وظهر من خلفهم شخص لا يظهر منه سوى عينيه الواسعة المضيئة كالشيطان وهو ينظر نحو (الطابع) وجثة ابنه و(حسان)، ارتعد (الطابع) وابنه من عين ذلك الشخص وصوت نعيق الغريان، فأمر ابنه بحمل الجثة وهو يكرّر ما عاوده منذ لحظات بصوت جهوري:

- أعود بالله من الشيطان الرجيم.

رفع (حسان) جثة أخيه فوق ظهره ووالده يعينه ويسدل عليه عمامته الثقيلة، ظلّ (الطابع) يراقب ذلك الظل على استحياء وهو يشعر أنه ينظر إليه، اندفعت الغريان باتجاههما، ورفع (الطابع) عصاه وبدأ يضرب فيهم على صوت ابنه المصحوب بالفزع.

- أبي يجب أن تغادر على الفور!

نظر لابنه وهو مذعور وعلى وجهه الشحوب ومن حولهم الأصوات المخيفة التي ترتجف له النفس، ردد (الطابع) ذكره وهو يقول لولده (حسان) ردد معي.. حتى خرجوا من الأرض واتجهوا للبيت الكبير.

رجع (الطابع) مع ولده حاملاً جثة (عثمان) فارتفعت صيحات وصرخات نسوة أهل بيت (الطابع) التي اندفعت في آذان أهل القرية كالأجراس، فخرجوا من بيوتهم حتى وقفوا جميعاً في خلاء الشارع الرئيسي، البعض يدخل إلى بيت والبعض الآخر تمرُّ عليه اللحظات بالترقب يتابعون ما الذي يحدث في صمت، جثة (عثمان) كانت موضوعة على سرير خشبي وبجانبه (الطابع) متكئ على كرسيه وبجانبه بعض الرجال يقص عليهم ما رآه، ينظر (رجب) إليه وهو يرتعد من كلمات أبيه التي يقصها على الرجال في ذهول، جميع الحضور يحملون في الجثة، كانت عينا الجثة سوداء قاتمة فأصابهم الرعب من النظر إليها، شاحوا بأبصارهم عنها ينظرون إلى أعين بعضهم البعض بغرابة شديدة، أعينهم تلمع بنظرات مذعورة حتى تكلم رجل منهم على استحياء:

- سيد طابع ما الذي حدث لكل هذا؟

عجز (الطابع) عن الكلام فهو لا يملك أي إجابات منطوقة، ثم ارتدَّ ببصره لولده (رجب) الذي يتلوى على سريرته، انتشر الخبر بطريقة سريعة كالنار في الهشيم بين الرجال والنساء، اجتمعوا من أطراف القرية حتى اندسَّ وسط الجموع رجلٌ ذو لحية بيضاء بشرته حنطية مليئة بالخدوش، أسنانه صفراء ومتهالكة يرتدي جلبابًا أسود يمر بين الناس ببطءٍ حتى وصل إلى الجثة، نظر إليه أهل القرية بحذرٍ شديدٍ حينما وضع يدهُ على جثة (عثمان) ثم تمتم بكلام غير مفهوم مما جعل الأجواء مخيفة وسط الجموع فتحدث قائلًا بصوت جهوري:

- أين وجدتموه؟

لم يرد (الطابع) عليه، كان يعلم من هو وأراد أن يطرده خارج منزله وهو يرمقه بنظراته الحادة، ولكنه اكتفى بمصيبته.

- وجدناه في أرضنا الشرقية.

قالها (حسان) على عجلة من أمره حينما رأى نظرات أبيه فابتسم الرجل ثم وضع يده على جبين الجثة وقال:

- لا أظن أنه كان بمفرده.

- نعم، لم يكن بمفرده فقط كان معه أخي الأكبر رجب.

قالها (حسان) وهو يشاور بيده لأخيه الملقى على السرير فتحرك الرجل نحو موضعه وهو يدفع بيديه أجساد الناس المجتمعين حتى وصل إلى سرير (رجب) ووقف أمامه مباشرة يطالعه، كان (رجب) يدفن رأسه بغطائه القماشي وهو يهز جسده، ظلَّ الرجل يغمغم بكلامه مرة أخرى ثم تكلم وقال:

- لماذا هربت وتركت أخاك؟

حينما قال تلك الجملة خرج (رجب) من كهفه وسحب الغطاء من رأسه وقال بتلعثم:

- أتعلّم من هو؟

ابتسم الرجل بخبث شيطاني، وفجأة ارتعد جسد (رجب) بشدة وظل يصرخ وهو يردد:

- إنه خلفك... إنه شيطان!! إنه خلفك... ماذا يريد مني؟

كان الجموع يراقبون بأبصار مرتعدة، ينظرون إلى بعضهم بعيون حائرة تعرقت أيادٍ وارتعشت أيادٍ من كثرة الخوف مما دفع (الطايح) أن يقوم من مجلسه وهو يخبط الأرض بعصاه وتحدث:

- اخرج من منزلي أيها العراف الداعر.

التف العراف بجسده فوجده ينظر له متذمراً بعبوس شديد، فمسح العراف بيديه على لحيته وهو يصدر ضحكة خفيفة، ثم تقدّم للأمام وسط الردهة وهو يزيح أجساد الناس بيده، وقبل أن يخرج من بيت الطايح نظر له:

- أنصحك أن تأتي به مبكراً، قبل أن تخسره.

لم يهتم (الطايح) بما تفوه به العراف قبل خروجه فهو لا يؤمن بخرافات أهل القرية لأنه رجل دين بعيد كل البعد عن

هذه الحماقات ويحارب دائماً السحرة والعرافين ولكن شيئاً ما يجول في نفسه كيف قُتل ولده (عثمان)؟ ولم عيناه بذلك السواد؟ ولم ولده (رجب) بهذه الحالة؟ جميعها أسئلة ظلت إجاباتها تُبحر في أعماق عقله، انتشرت الأكاذيب والإشاعات بين الدروب ورجعت أسطورة الأرض الشرقية وشيطانها، لا يكاد بيت في القرية إلا ويتحدث عن مقتل ابن الطايح بالجن وولده الآخر الذي مُسّ بشيطان، وبعد انتشار تلك الأقاويل لم يحضر دفنة (عثمان) إلا قلة من الرجال ذهبوا بنعشه إلى مقابر العائلة المتطرفة غرب القرية، حفروا له قبراً وعندما انتهوا أنزل (الطايح) جثة ابنه وعيناه تبكيان ثم زاد عويله عندما بدأوا يحثون التراب على القبر، فأقبل الرجال باحتضانه واحداً تلو الآخر ليشدوا من أزره حتى غادره الناس وأصبح وحده برفقه ابنه (حسان)، اقترب (الطايح) من القبر وجلس على صخرة وظل يهمس بصوت خافت محدثاً ابنه تحت التراب:

- لماذا يا بني؟ لماذا ذهبت بهذه السرعة لحظات وكأنك لم تكن هنا، كأنك لم تأتِ ولم أعرفك فليُعني الله على ألم فراقك.

قطع شروده صوت ابنه (حسان):

- يجب علينا المغادرة يا أباي، إن الشمس شارفت على
المغيب.

ولدت (نفيسة) طفلها الأول (المعتصم) وظلَّ بيت (الطايح) معزولاً وسط القرية لفترة طويلة، فمزلته وسط العوام اندثرت وبدأت في الزعزعة ولم يكن رجل في القرية يجرؤ على أن يقوم بخطية واحدة من بنات أهل عائلته وهناك من شارفوا على سن الزواج بسبب كثرة اللغط وانتشار الأخبار المشبوهة والتي لم تكن في حسابان أهل الطايح، أما (رجب) فقد ساءت حالته وعجز حكماء أهل القرية وأطباؤها عن معرفة علته فهم لا ينامون الليل ويسهرون فوق رأسه ويعدون أنفاسه، ينام (رجب) لبضعة أيام دون طعام أو شراب، وحينما يستيقظ يصبح كوحش تائر يلتهم أي شيء يوضع له، نظرته تغيرت وبرزت الشعيرات الدموية في عينيه، ويصدر أحياناً فحيحاً كالثعابين الزاحفة.

أدرك (الطايح) أن ثمة شيئاً قادماً لابنه ولا يدركه، لكنه يشعر به إلى حدّ اليقين المتشعب بالخوف والرهبة، كانت زوجته تخشى نبوءة العراف حينما قال: «أنصحك أن تأتي به مبكراً قبل أن تخسره» فلعبت لزوجها على ذلك الوتر وقالت بنغمة مستعطفة ومترجية:

- ألا نأخذه للعراف يا طابع؟

نظر إليها بنظرة حادة وتحدث بصوت جهور قائلاً:

- أتريدينني أن أذهب للعرافين والسحرة لشفاء علة ولدي
يا امرأة؟

اقتربت منه وهي تضع معصمه على رجليها وتمسح كف
يديه بهدوء شديد ثم قالت:

- لم أقل هذا، ولكن ولدك سيموت بتلك الطريقة ونحن لا
نعلم ما العلة؟ قلبي ينزف وجعًا على فقداني ابني عثمان ولا
أريد يا طابع أن أفقد فلذة كبدي الأخرى بالله عليك.

نظر لها بنظرة عطف وهو يتنهد تنهيدةً خفيفةً، ولكنه
داخل نفسه يحارب في معركة خاسرة، يحارب أفكار زوجته
وهو يخشى على مركزه وسط أهل القرية، لا يريد أن يلصقوا
به تهمة بأن (الطابع) استعان بعراف البلدة أو له صلة به
وبسحره اللعوب، فهو معروف وسط القرية برجل الطاعات،
ودائمًا ما كان يحث الناس عن اجتناب تلك الأفعال:

- ستكثر الأقاويل وسيهزأ بي رجال القرية.

- الناس يا طابع! الناس هم أول من ألصقوا التهمة بك..
الناس الذين حرّموا زيارتهم لبيتك؟! أنت لا تعلم عما يدور
خلف هذا الجدار؟ إذا كان يهتك الناس فقد خسرتهم ولا
أريدك أن تخسر ولدك.

هزت كلمات زوجته قلبه المفتور كزلزال، كان شاردًا حينما
قام (رجب) من سريره مفزوعًا فأمر زوجته بالانصراف
فخرجت وأصبحوا يتبادلون النظرات هو وابنه والصمت يعم
الغرفة، قام (الطابع) من مجلس متسندًا على عصاه متجهاً
لخزانة (رجب) وكان الآخر يتابعه بعينيه في ريبة، عاد إليه
(الطابع) حاملاً في يده مصحفًا جلدًا:

- افتح المصحف يا ابني واقرا آيات الله.

نظر (رجب) لأبيه بوجه جامد قائلاً بصوت أصبح أكثر
غلظة قائلاً:

- أغلقه!

نظر (الطابع) له بخوفٍ وهو يطوي المصحف وعيناه
تحدقان بعدستها في أرجاء الغرفة ثم قال بصوت مرتعش:

- ماذا بك يا بُني أخبرني؟

كانت نظرات (رجب) عميقة كمن تريد أن تفصح كل شيء
دون أن تنطق حرفًا واحدًا مما جعل التوتر والخوف يسكنان
في قلب (الطابع) وأصبح يردد آية الكرسي.. فأصبح (رجب)
يصدر فحيحًا مكتومًا وهو يقول:

- أنت تريد الدم!

ظَلَّ يردّد هذه المقولة كثيرًا «أنت تريد الدم» حتى أغشي
عليه مرة أخرى، شعر (الطابع) باهتزاز مصباح الجاز المعلق،
رأى بطرف عينيه ظل شخص يستقر في ركن من أركان
الغرفة وجسد ولده بدأ يهتز بصورة جنونية والعرق يتصبب
من جبهته رغم الشتاء، توتر (الطابع) وظلّ يستعيد بالله
حينها أصدر (رجب) فحيحًا غريبًا، لم يتحرك (الطابع) من
مكانه وأصبح يتابع تغيّر ملامح ابنه تدريجيًا، تبدلت عينا
ولده احمرارًا كلون أعين الغراب الذي رآه في أرضه، نهض
من كرسيه وهو يومئ برأسه بالإيجاب، بعدما أمره ابنه

بصوت غليظ قائلاً:

- اخرج من غرفتي الآن.

وبعد ساعة خرج (رجب) يرتجف ويتابعه (الطايع) وهو متكئ على كرسيه بجانب زوجته ينظران إليه بريبة شديدة كلما تقدم خطوة كانت الأم تقترب من الطايح بارتعاش فتكلم (رجب) بنبرة حزينة وعيناه تترقرقان من الدموع وقال:

- أتخافون مني لتلك الدرجة؟

لم يجبه أحدٌ فاندفع نحو أمه فصدرت منها صرخة مفزعة، ولكنه ألقى بجسده في حضنها يرتعش وهي تحاول أن تضع يدها على شعره.. فتكلم (الطايع) وقال:

- سنذهب بك إلى العراف علام يا رجب..

حمل عباءته وأخذ ولده وسارا حتى وصلا لبيت العراف في شرق القرية بجوار أرضهم الزراعية فكان منزله يقع في

زقاق خالٍ وتصطف أمامه مجموعة من النساء والرجال من أهل القرية حيث كل واحد منهم أتى لذلك المكان طالبًا غرضًا معينًا، أخذ (الطابع) رقمه وكان الأخير حتى أتى إليه رجل أعرج يدعى طه قائلًا:

- العراف علام ينتظرك.

دخلوا الغرفة، وما إن دخل حتى صفعته رائحة البخور من بعيد، حاول أن يتمعن النظر ليرى ماذا يفعل هذا العراف، وشيئًا فشيئًا بدا يلوم نفسه على ذهابه إلى هذا المكان، يجلس (علام) على كرسيه وبجانبه جلود للحيوانات ورؤس لذئاب والثعالب ومئات الكتب القديمة، نظروا إلى الأبخرة المتصاعدة من وعاء نحاسي يضعه أمامه والتي جعلت المكان مليء بالرائحة العطنة، اشتهر العراف (علام) في القرية بمعرفة الطالع بحوادث الماضي والحاضر ويستغل هذه الأحداث الشاذة لإلقاء الرعب في نفوس وقلوب أهالي القرية، يأمرهم بالتضحيات والقرايين وترضية الأسياد.. أي أسياد؟ هو وحده يعلمهم، نظر إليهم بابتسامة باردة وهو يلقي بخوره في مبخرته النحاسية، التي أضاءت الغرفة لتوحي بالرعب والرغبة، استمر في ابتسامته وظهرت أسنانه الصفراء، وقال بصوت رخيم:

- لقد تأخرت هل جاؤوك بالأمس؟

قالها (علام) ناظرًا إليه، فاستغرب (الطابع) وهو على وشك سؤاله هل ما شعر به أمس يعلمه حقًا؟ وتمامًا كما لو أنه قرأ أفكاره فضحك مرة أخرى وهو يرمقه بنظرة هادئة.

- شعرت بهذا فقط لا تقلق يارجل، ولكن صدقني هذا من أسعد أيامي، الطابع بشحمه ولحمه دق على بابي.

- إنني أريد معرفة ما العلة بولدي ولم يحدث لنا كل هذا؟

قالها (الطابع) دون النظر إليه وهو يمسح بيده على شاربه بغيظ شديد فأجابه (علام) وهو يقوم من كرسيه الخشبي المطرز:

- لأنك يا طابع فعلت بي إثماً عظيمًا، لقد أمرت ولدك بهدم بيت أسياي منذ أربعة أشهر.

- بيت... أي بيت؟! أتقصد ذلك الرجل الغريب؟ إنه يهودي ولا نعلم من أين أتى وأن ولدي عثمان من علم سره وأوشى به وعلم رسومه لتلك النجوم الخماسية وصلواته الغربية،

ولكن لا أستعجب أن تترك دينك لتصبح مثله يا علام إن كان لك دين من الأساس..

ضحك (علام) بصوت عالي والتف بجسده للناحية اليسري وترجل بخطوات بطيئة حتى وصل لكرسي (رجب) فاخذيمسح بيده على شعر (رجب) الاسود الناعم، وهو يتمتم بكلام غير مفهوم فارتجف جسد الشاب واصطكت اسنانه، مما دفع (الطابع) على ضرب يده بغلظه! فنظر (علام) إليه وهو يضحك لتبرز أسنانه الصفراء:

- ساقول لك نصيحة، لا تدخل فيما لا تعلمه ولا يعينك أمره..وما يحدث لك الآن هو ثمار تحصدها لما فعلته وهدمك للبيت المُحرم والذي بناه سيدي، من قال لك إن البيت كان يسكنه رجل من الأساس، ومَن أخبرك أن تلك النجوم للديانة اليهودية فقط؟ أنا من بنيت البيت بأمر أسندت إليه ولا دخل لك به، وأنت من هدمته ولذلك ولدك عثمان راح ضحية وقربانًا للإثم وذلك أمر من سيدي، ولكني سأتضرع لك من أجل ولدك الآخر لمولاي وسيدي النعمان عسى أن يشفيه، ولكن يجب أن يبقى معي ستة أشهر وإلا القادم سيكون أسوأ ولن تتحمل عقباه! فما قولك يا طابع؟

كان (الطابع) يستقبل كلامه بدهشة ولا يصدق ما يسمعه ولا يعلم خبايا ما يقوله، كان يعلم أنه كافر لعين وأراد أن يخرج طبنجته من جيب صدره ويقتله ولكنه أحس بثمة شيء قادم له، لا يدرك كهنه على وجه التحديد ولكنه يشعر بالذعر والخوف على ولده (رجب) وأيضًا من نظرات (علام) المليئة بالريبة فقال:

- وافق (الطابع) على مضمض أن يترك ولده.

ترك (الطابع) ولده مع ذلك الرجل وحينما همّ للخروج ذهب معه (علام) ليودّعه، ظلّ (رجب) يحدق بعينه في تلك الخيمة التي يقطن بها وهو يتأملها ويحدّث نفسه قائلاً: «لَمْ يسكن ذلك العراف في هذا المكان المنقطع حيث لا شيء بجوار خيمته هذه سوى المقابر، يالبشاعة خيمته ودمامتها؟، لَمْ أَر في حياتي مشهدًا موحشًا كهذه الغرفة داخل الخيمة وكأنها تُسكن بها الشياطين ثم نظر خلفه فوجد صخرة عريضة مرسومًا بها نجمة داوود ومكتوب عليها بلغة غير مفهومة وغريبة.

دخل عليه (علام) وعلى وجهه المجدد ابتسامة صفراء مرتسمة وعيناه الجاحظتان وهو يهز رأسه يمينًا ويسارًا

- أهلاً بك في بيتك الجديد يا رجب!

- بيت؟ أي بيت من أنت؟ ولم أنا هنا؟

فاقترب منه (علام) وهو يكمل كلامه في حماس:

- إن كنت تسأل عن البيت فهو بيت سيدي وسيدي، بيت النعمان.. وإن كنت تريد أن تعرفني فأنا العرّاف ولي أسماء كثيرة فأنا أجوب الأرض ولكن نادني بعلام فهذا الاسم أنتم من لقبتموني به وأعجب به سيدي! وأنت هنا بأمر منه فهو اختارك لتكون خليفتي.

رفع (رجب) حاجبيه واستشاط غضبه:

- أنا لا أفهم منك أي شيء؟ تبّاً لسيدي اللعين ولمجلسك، أين والدي؟

تقدّم (علام) نحوه وهو يمسح بيده على خاتم فضي عتيق، تغيرت ملامحه فارتسمت على وجهه ملامح الضيق

وكان شوه الله وجهه وقبحه وعيناه يتبدل لونهما، فبدأ
حديثاً قائلاً بصوت رخيم فانتفض قلب (رجب) من عينيه
وصوته وكأنه طعنه بخنجر مسموم عندما سبَّ سيده:

- أنت لا تعلم كم أغضبتني وأغضبتهم، ولولا أن وجودك
كان مرحباً بأمر منه لقتلتك، ولكنه اختارك أنت للتعلم مني
ولتكون رسوله فهو يتنبأ لك بمستقبل مجيد وحاضر سديد..
وأنت الآن تسبُّه؟

اقشعر بدن (رجب) وأصبح يشعر بمئات الخيالات أمام
عينيه ناظرين إليه، فتكلم بصوت مرتعش:

- أنا لم أقصد هذا.. ماذا تريد مني؟

- سؤالك خاطئ يا ولدي.. أنا لا أريد، بل هم.

- هم .. ولم أنا بربك؟

- لأنك تشبهني! تشبه خصالي وطباعي، أنت لا تشبه
الكثيرين من أولئك العوام الذين سئت عليهم القوانين من
أولئك المقيدين.

صمت لبرهة ثم ابتسم وأكمل:

- أنت إله نفسك، أنت تشبهني يا رجب، تشبهني في ذكائي
في طموحي، حتى طريقة قتلي، أتظن أنني لا أعلم أين
اختفت صفية راقصة الحانة؟

برزت عينا (رجب) وتنهد بصوت عالٍ فأكمل (علام) كلامه:

- لمّ الخوف؟ لا تخف يا رجب فكل شيء يحدث من حولي
هنا أنا أعلمه وأنت عما قريب ستعلمه، لأن الطموح يسير في
دمك، الثراء.. والشهرة.. والجاه لقد اصطفوك وسيتوفر لك
كل هذا.. لذلك عقابهم على أخيك لم يصبك!

استدار (علام) وظلّ يمشي بخطواته لصورة قديمة
موضوعة في أحد أركان الغرفة أخذها وظلّ يتأمل فيها،
كانت صورته في الماضي، رجل ذو بشرة حنطية وتبرز
لحيته البنية على خديه يبتسم ابتسامة بلهاء وقد فقد إحدى
أسنانه الأمامية ظل ردحًا من الوقت يبصر في صورته، أما
(رجب) كان يثير في نفسه الخوف والريبة من ذلك الرجل
عاود كلامه.

- أتعلم؟ لم أخبر أحدًا يومًا عما أشعر به.. لي قصة لم يستوعبها عقلك الصغير فأنا لي حكاية أقرب للخيال وذكّرت مع الأساطير، وقبل أن أقصها عليك للتعلم مني، عليك أنت تنضم إليّ لأنك ما ستسمعه مني في هذا الجزء ما هو إلا بداية لرحلتك في عالمي..

استجمع (رجب) شجاعته وبدأ يسمع قصة (علام) والتي أثارت فضوله لهذا الرجل الغريب وعندما أنهى (علام) كلامه أخرج من سترته سكينًا صغيرًا وبدأ يقرأ عليه تعازيم جعلت (رجب) ينظر إليه بغرابة وحذر بسبب مخارج الحروف التي كانت غير مألوفة لمسامعه، تحرك (علام) باتجاهه فذاب قلبه وغاب صوته وجمد الدم في عروقه ورفع حاجبيه الغليظين من الرعب الذي يسكنه فبدأ يقول بصوت مرتعد:

- ماذا ستفعل بي؟

لم يجبه (علام) وظلّ يرتل تعازيمه على السكين ثم سحب يده وجرحه فيها، صرخ (رجب) صرخة كاد أن يسمعها كل من يقطن في القرية من الألم والدم يقطر من يده، بينما (علام) أخذ السكين الذي توجد به آثار دم الشاب وظل يردد مرة أخرى كلماته وهو يراقب جسد (رجب) متحدًا:

- برهيته برهيته، كيرير كيرير، خوطير خوطير، أسرعوا
بالإجابة والبرهان، هلموا بالأحكام المكتوبة في الواح عزقيل
وخدام العهد الكبير.. العهد الكبير أجيبوا دعوتي لقد تم
الميثاق والعهد الجديد.

ظَلَّ يردد تلك الكلمات وهو ينظر لجسد (رجب) الذي بدأ
ينتفض ويرتعد، حينها شاهد (علام) عيني (رجب) قد احمرتا
بلون الدم، تهلل وجه (علام) وظهرت أسنانه الصفراء من أثر
الابتسام.

- لقد أنجزت مهمتي، وهذا جزاء لمعصية أبيه وهدمه
لمقامكم.

تكلم الكيان على لسان (رجب) بصوت غليظ:

- بوركت يا علام وأحسنت صنعًا!

شعر (علام) برضا أسياده وأنه خادمهم المخلص، وعندما
استفاق رجب من تلك القوة المسيطرة عليه، اتخذ (علام)
خليلاً وبدأ يعلمه أشياء ويخفي عنه الكثير برغم من طلب
أسياده بتعليم الشاب، إلا أن حقه وغروره دفعه على ذلك

ألا ياخذ (رجب) منه تلك المكانة في يوم ما.

أصبح (رجب) يشاهد الناس تتوافد على بيت (علام) بالمئات يوميًا، مما دفعه على احترامه وتبجيله وأخذه الفضول باتجاه ذلك الخاتم الغريب الذي لم يفارق يومًا إصبع معلمه ويستخدمه في كل الحالات التي تأتي إليه، تعلم (رجب) أساليب (علام) وكيف يجعل الناس دومًا في حاجة إليه ويحفظ جميع أسرارهم الظاهرة والباطنة، فلا أحد يدخل هذا البيت ومصاب بعلة ألا ويخرج مصاب بأكثر منها.

(علام) يربط جميع مرضاه بأعماله فما إن يعالجهم بمشكلة إلا وقد أصابهم بمشكلة أكبر من خلال أتباعه ليصبحوا دومًا في حاجة إليه..

حاول (الطابع) كثيرًا انتشال ولده من هذا البيت ولكن (علام) كان يرفض بحجة أن ولده لم يتعافى حتى الآن...

ظلّ (رجب) عند (علام) ستة أشهر بأمرٍ من سيده ليعلمه كل أساليب سحره التي تعلمها في سنين عديدة، استغرب (علام) أوامر النعمان واستنكرها وخاف من علاقة سيده بهذا الشاب الصغير والتي تزداد يومًا بعد يوم، ف شعر أن

النعمان يطمح في استبداله، كف (علام) عن تعليم (رجب) أي أمور أخرى ولأول مرة يعصي أوامر النعمان ويتمرد عليه، استغل (علام) قوته وشهرته وظنَّ أنه ليس بحاجة إلى سيده، وطلب من (رجب) المغادرة.

خرج (رجب) من منزله يرتدي جلبابًا أبيض فضفاضة زاد وزنه وخفَّ ذقنه واختفت بقع السواد والتي كانت تملأ خديه وجبينه، لم يعلم أحدٌ في القرية ما الذي حلَّ به، شعر أهل القرية جمعياً أن هناك أيضاً تغييرًا كبيرًا في شخصيته وكلامه وأسلوبه، لم يعلم الطابع ما الذي حلَّ بولده وبدأ يستدرجه ليعرف منه ما الذي حدث في بيت العراف ولكن (رجب) امتنع عن الكلام في ذلك الأمر واكتفى فقط بالجلوس مع ولده الصغير الذي ولد قبل أن يخرج من عند (علام) بثلاثة أيام.. قد حدث أمر غريب بعد خروج (رجب) من منزل (علام) بيوم واحد، اشتعلت النيران في بيت علام من تلقاء نفسها وحرقت كل ما فيها، كان منظرًا مؤلمًا والنار لم تهدأ حتى أكلت جسد العراف ولم يستطع أحدٌ في القرية إخماد النيران.

تلبّس الظلام القرية وخرج (رجب) من بيته ذاهبًا لبيت
علام المحترق وظلّ يحفر فكل ما يريده ذلك المجلد
والخاتم المزركش الذي كان يخفيه (علام) تحت أرضية
البيت، وجددهم (رجب) وفرح وهو في قمة سعادته فقرّر أن
يخلو بنفسه في الليل ويتعلم أمورًا من ذلك الكتاب التي
أخفاها عليه (علام) حتى سمع بقصة أصبحت موضع حديث
وسمر أهل القرية قصة شاب ادعى هروب خطيبته من
القرية وظلّ الناس يبحثون عنها. أحس وقتها (رجب) أن
هذه الفرصة يجب أن يستغلها ليعلم عنه أهل القرية.

جمع أهل القرية واتجه بهم على بيت الشاب ودق عليه
وفتح له فصاح (رجب) بأعلى صوته:

- إن الفتاة التي تبحثون عنها مدفونة في فناء منزله.

ذهلوا جميعًا عندما وجدوها والتفتّ الناس حول (رجب)
وذاع صيته وظهرت بعض الكرامات عليه بعد موت العراف
(علام)، ازدادت شهرته في القرية أكثر وبدأ يتحدثون عن
كرامته مما أغضب (الطابع) فأمر ابنه أن يترك هذا الإثم،
ولكن شهرته منعتة من فعل ذلك، تبرأ (الطابع) من (رجب)
إلى يوم الدين فشعر ابنه بالغضب من تلك الفعلة، وأخذ

زوجته وولده من بيت أبيه وقرر (رجب) أن يسكن ببيت العراف (علام) وعاد ترميمه.

أصبح جميع من في القرية في انتظار عراف جديد موثوق به بعد موت (علام)، فالقرية بها الكثير من العرافين ولكن ليسوا بمهارته، انتشرت الحكايات الزائفة عن (رجب) وأنه تلميذ (علام) وهو الوحيد الذي عاش وذاع صيته وتهافت عليه الرجال والنساء من القرى المجاورة وبدأوا يتوافدون عليه ويخبرونه بمشاكلهم وأمورهم.

(الفصل الثاني)

ظلت علاقته بـ (نفيسة) فاترة لا يُوجد بها أي عطفٍ أو حُبٍّ، وهي التي كانت تظنُّ أن بعد ولادة طفلها الأول (المعتصم) سيتبدل الحال ولكن حتى بعد أن أكمل طفلها عمره السابع لم يتغير شيءٌ.. كان دائمًا منغمسًا في عمله داخل غرفته المظلمة، مرت أيام وليالٍ لا تنام (نفيسة) فيها من شدة خوفها على ولدها كانت وحيدة، تراه في بزوغ الليل يتضرع بكلام وتمتمات غريبة وتسمع ما لا تود سماعه من صرخاتٍ وأصواتٍ غريبة تأتي من غرفته وخيالات وأطيان سوداء وحشرات وعقارب غريبة، وفي نهاية اليوم يخرج (رجب) متصببًا عرقًا ومرتجفًا، يهز رأسه كأنه يؤمر من أحدٍ، لا تستطيع عيناها رؤياه ولكن (نفيسة) دائمًا ما تشعر بهذا الطيف وبوجوده حتى استغلت فرصة حبه لولده ورقة قلبه تجاهه وقالت على استحياء وهي خائفة من ردة فعله:

- أظن أن ولدك يجب أن يعيش حياةً أفضل من هذه يا رجب.. كف عما تفعله من أجله.

تنهّد بعمق وترك ابنه وابتعد عنها وأغلق باب غرفته عليه
دون أن يتفوّه بكلمة واحدة!

وفي نفس اليوم أثناء عمله في غرفته سمعت (نفيسة)
صوته يصرخ بشدة، ليس بصراخ لبني البشر بل يعوي
كالذئب ويتألم فلم تتردد للحظة في معرفة صوته، كانت
خائفة ولا تستطيع حتى أن تبلع ريقها، أصبحت ترى النار
مشتعلة في غرفته وهو جالس بجوارها يئن بصوت رخيم
حتى تكلم وقال:

- لم خرجت من غرفتك؟

ارتعدت فرائصها ليس من صوته الغريب، ولكنها كانت تعلم
أنها لم تصدر أي صوت أثناء سيرها، فظلت تسأل في نفسها:
«كيف حس بوجدي؟» لم تجبه فتحدث مرة أخرى:

- سنترك قرية الضاحي اليوم، أحضري ما تريدينه من
متعلقاتك.

كان أمرًا غريبًا بنسبة لها كيف يترك الناس؟ كيف يترك
القرية التي تبجله؟ كيف سيرمي كل تلك الشهرة والمكانة

وراء ظهره مرة واحدة دون مقدماتٍ، ولكنها لم تجادله خوفًا مما تراه، فخرجوا سويًا في الفجر وهو حامل لابنه الصغير، كانت تعلم أن (رجب) شخص شحيح الكلام ولا يتحدث معها في أي أمورٍ تتعلّق به، ولكن في ذلك اليوم أخذ الضيق فقصّ عليها حكايته طيلة الرحلة داخل بيت علام. وسبب خروجهم من قريتهم الجديدة أنه اقتنع بكلامها، ويجب أن يعدل عن هذا الطريق من أجل ولده.

تركوا كل شيء وذهبوا إلى قرية (الحسنية)، ترك (رجب) المال والشهرة وحياة الأثرياء وتاب وتضرع إلى الله ووصل به الأمر أن يغير اسمه وسمى نفسه (عبدالله) عسى أن يغفر له الله آثامه وذنوبه القديمة وجاهد (رجب) نفسه وترك شياطينه بشق الأنفس وعملَ فلاحًا في إحدى المزارع حتى جاء ولده الثاني (عصام) بعدما أكمل (رجب) عامه الثالث في القرية الجديدة، لم يمر عليها يومًا في حياتها مع (رجب) ورأته فرحًا إلا ذلك اليوم الذي ولد فيه مولوده الثاني، أصبحت عيناه تضيئان من شدة سعادته وبات يكدح في الصباح ويأتي في العشية فرحًا برؤية ولده لتنسيه أي هموم وكدح، ولكن تغيرت الأحوال في يومٍ وليلة. حتى جاء صاحب الأرض له في يوم وقال:

- كيف أحوالك يا شيخ رجب؟

هز الاسم كيانه فلم يكن أحدٌ يناديه بهذا الاسم منذ قرابة
ثلاثة أعوام، فلم يجبه (رجب) وظل يضرب بفأسه الأرض
فاقترب منه الرجل متعجبًا قائلاً:

- أتظن أنني لا أعلم من أنت حقًا؟

رمى (رجب) فأسه وتقدّم للرجل وهو يقول:

- ماذا تريد مني؟

- لا أريد أي شيء ولكن أنا أعلم من أنت لذلك وافقت أن
تعمل بأرضي وتغاضيت عن تسمية نفسك بـ (عبدالله) عسى
أن تجلب لأرضي الخير من كراماتك، ولكن ابنتي أصابتها
الحمى والأطباء يقولون إن أيامها معدودة فافعل شيئًا
وسأكافئك بما لا تتخيله نفسك.

قال ذلك وهو يمد في جيبه ويخرج أموالًا كثيرة فتحدّث
(رجب) قائلاً:

- تضرع إلى الله يارجل

اقترب الرجل منه في عطف ووضع يده على كتف (رجب) وتحدث بصوت منخفض وقال:

- وأنت من أولياء الله الصالحين يا شيخ؟

فصاح به (رجب) وهو يدفع يده عن كتفه:

- أنا لست هكذا صدقني، تضرع إلى الله ليس لأي شيء آخر.

استشاط الرجل من الغيظ ونظر له بعين حمئة.

- إذا ليس لك عمل عندي وسأكشف أمرك للعامّة واغرب الآن عن وجهي.

عاد إلى بيته مهومًا، رأت (نقيسة) زوجها مهموم الحال قائلة:

- ما بك يا رجب؟

حكى لها رجب ما دار بينه وبين صاحب الأرض فحاولت
تواسيه بكلماتها العاجزة عن الخروج من لسانها.

- الأرزاق بيد الله وحده، لن يخذلك الله، هذا ابتلاء يا
رجب.

اشتد بهم الحال والفقر، أيام عصيبة مرت بهم وكشف أمر
(رجب) وسط العوام بسبب ذلك الرجل، ظلّوا لأيامٍ يطرق
على بيوتهم الأعيان يريدون من (رجب) أن يسير تجارتهم
بالأعمال وهو يرفض، حتى طرق على بيوتهم ذات ليلة رجلٌ
ثمينٌ بشرته حنطية وله عينان بنيتان، أصلع الرأس ويرتدي
جلابًا أبيضًا واسعًا وملقى على كتفيه ملحفة بيضاء من
القماش الخفيف يسمى الحاج (إسماعيل النصار) كان من
أعيان القرية فرحّب به (رجب).

جلس الرجل وطلب منه أن يبقوا بمفردهم، ولكن (نفيسة)
تصنّت عليهما وعلمت أنه يعرض عليه بأن يعمل معه
فسيجلب له خيرًا كثير، ولكن الشرط أن يعود (رجب)
لأفعاله الماضية، فتحدث الرجل وقال:

- أيعجبك حالك هذا يا رجل؟ أنا لا أطلب منك الكثير..

فقط أطلب منك أن تدبل محاصيل (عطية الكيال) وأن تبور أرضه! مثلما فعل بي في الماضي، وحينها لن يكون في السوق غير محاصيلي!

رفض (رجب) على استحياء، فأخرج (إسماعيل نصار) من سُترته مئات الجنيهاً وظلَّ يقنعه ويقول:

- خذ يارجل.. خذ تلك الأموال! أولادك الصغار يتضورون جوعًا، وزوجتك لن تمكث طيلة عمرها في هذا الحال! خذ تلك الأموال ولا تخجل مني، ستصبح ذراعي اليمنى ويدي التي أبطش بها على كل من في القرية، سيتبدل حالك مثلما كنت في السابق يا رجب.. أنت رجب ذو المكانة الرفيعة لست ذلك الرجل الذي يجلس أمامي بجلباب أصباها العفن يملأه الفقر واليأس.

ظلَّ (رجب) صامئًا لا يتحدث يفكر في حاله، يفكر في مستقبل ولده (عصام) حينما سمع صوت بكائه آتيًا من غرفته، ظل يفكر في حالهم على نظرات (إسماعيل نصار).

غادر البيت، ودخلت نفيسة عليه وهو جالس وقد أصابه اليأس فاندفعت بسؤالها مستعجبة قائلة:

- لماذا أخذت الأموال يا رجب؟ أحقًا ستهدم كل ما وصلت إليه؟

لم يجِبها (رجب) واكتفى بالنظر إليها فعادت تسأله:

- أجبني يا رجب؟ أحقًا سترجع لماضيك؟

- ولمَ لا؟ لقد سمعت بنصيحتك في الماضي ولم يصبنا غير الفقر والوهن؟ دعيني لشأني يا نفيسة ولا تتدخل في ما لا يعنيك..

أخذ وقتًا طويلًا في تفكيره وعاد أسوأ مما كان تبدلت الأحوال وعاد (رجب) مرة أخرى بل أكثر شرًا، ذاع صيته وزاد نفوذه داخل قريته الجديدة بفضل الأعيان. ساقته الدنيا لفعل الكبائر دون مقاومة، حتى ظهر خبر موت الطفلة، كانت (نفيسة) لا تعلم هل (رجب) سحرها أم ماذا حدث، ولكن ما تعلمه أنهم انتهى بهم الحال لما هم فيه الآن، طردوا من ديارهم.. طرد (المعتصم) من قريته الحسنية التي وُلد فيها أخوه الصغير (عصام)، رأى والده يُقتل أمام عينيه ولم يتدخل أحدًا من الأعيان المقربين لأبيه بل هم الذين طعنوا أباه من خلف ظهره ونالوا منه مع أولى موجات الغضب، أما

هم فحمد لله خرجوا منها سالمين، والآن ذاهبون إلى خالته
لعلها تسضيفهم أيامًا معدودة.

صمتت (الأم) قليلًا وهي تتنهد بضيق وتضم طفلها الصغير
لحضنها ثم قالت:

- كنت لا أريد أن أبوح بهذا مطلقًا، ولكنك الآن يا ولدي
أصبحت رجلاً، هذا ما حكى لي والدك عمًا حدث من مقتل
أخيه حتى ما حدث معه في بيت علام واليوم المشؤوم.

أنهت أمه قصتها وتركت ولدها (المعتصم) يغوص في بحر
أفكاره، حتى استفاق على صوت أمه وهي تنبهه بحمل
أغراضهم لأن محطة خالته أوشكت على الاقتراب..

(الفصل الثالث)

ولد (علام العراف) بمصر قرية الضاحي، اعتاد (علام عبد الحي) منذ صغره حضور الموالد القديمة وسرعان ما اتخذ أرباب السوء والرعاع أصدقاء له، أما أبوه كان لا يملك إلا أن يتحسر على ما أصاب ولده ولا يستطيع أن يقف أمامه، كان يتردد على الحانات وامتنع عن المساجد والصلاوات واستهان بحدود الرب، قضى حياته باستهتار يعاقر الخمر الرديء في أحضان البغايا الرخيصات وشغلته الدنيا إلى حد كبير فطرده والده بعدما أفلس.

تنقل (علام) بين المهن والصنائع ولكنه لم يمكث في إحداها أكثر من يومين يذهب إلى العمل متأخرًا متثاقلاً وعندما يحصل على أجرته اليومية يهرع ليقابل الذين لا يقلون عنه قباحة، يسهرون في مجونهم حتى الصباح، يظلون سكارى من أثر الخمر ونساء الحانات، هزل جسده من ضعف الحال حتى وجد نفسه وحيدًا بلا شمراء ولا خلان وقد بلغ الثلاث والثلاثين من العمر، وانفض من حوله كل أصدقاء الماضي وتمنعت عليه الخمر حينما فقد مصادر الدخل.

وصار لا يغادر القبر المسمى بغرفته حتى دله صديقٌ له في الماضي للسفر إلى المغرب ويريد منه رفقته، وقال له:

- يوجد فرصة للسفر يا علام وأريدك خليلاً معي فيها؟
أعتقد أنها فرصة لتبدأ حياة جديدة في بلدة جديدة؟

سخر (علام) من قوله وقال:

- المغرب؟ أنت أحمق أم ماذا؟ من أين أملك المال للسفر ولم أذهب إلى هناك أصلاً؟

- مصاريف سفرك لا تشغل بالك بها ولا تعنيك وعمي هناك يمتلك محلاً تجاريًا وأنا أريدك أن تعمل معي وأريدك أن تبدأ حياة جديدة يا صديقي بعدما تخلى عنك أقرب الناس إليك وأنا هنا أمد لك العون.

لم يجد أمامه حلاً سوى الخروج من قريته إلى أرض واسعة وسيجد فيها مغام كثيرة ولتذهب تلك القرية الساخطة على أفعاله إلى الجحيم، فاتخذ قراره ووافق وفي أيام قليلة حمل حقيبة صغيرة تحمل أقمشة قليلة ليستر بها

جسده.. ظلَّ يهرع هو وصديقه، ولكن لم تكن رحلته هينة في الصحراء فهي لا ترحم والطريق طويل وشاق وأثناء الرحلة سمع من البعض عن شيخ يدعى (اسفي) في مراكش بحوزته كتاب من يمتلكه يحصل على مكاسب الدنيا، كان (علام) شديد الإنصات في كلام رفقته في سفره، ظل يسأل من كان يعرف أمر هذا الشيخ أيام طويلة، سار مع رفقته حتى وصلوا مراكش، وعندما دخلوا أسوار المدينة وجدوا شخصًا في انتظارهم، سرعان ما تأقلم (علام) في مدينته الجديدة، ولكن عقله كان يلهث بما قاله الفتى عن الشيخ (اسفي) وذلك الكتاب لم يخرج لحظة من تفكيره بل وعلم اسمه من أبناء المدينة أنه (كتاب الأزمان وسر الموتى) وذات ليلة علم موقعه وعلم بتواجده في أحد الموالد الشهيرة في مراكش..

المغرب - مراكش

يخرج شيخ من خيمته يمسك بعصاه كالتي يرعى بها الرعاة الأغنام يصطف حوله عدد كبير من السحرة والعرافين في فناء أرض بها نخيل وجبال واقف في شموخ يخطب

فيهم ويسألون فيجيب والأعجب أن هذا العراف (اسفي) أشهر ساحر في العرب، له كرامات عديدة جعلت من يريد علمه يسافر له ويقطع آلاف الأميال، يتابعه شاب ثلاثيني أسمر البشرة وقد أعجب بهذا الشيخ فقال الشاب:

- أعطينا يا شيخنا من علمك وما تعرفه عن مجلد الأزمان وسر الموتى.

نظر الشيخ إلى الشاب بإعجاب قائلاً:

- مَنْ أنت؟ أنا لم أرك هنا من قبل.

- أنا من مصر يا شيخنا وأدعى علام.

ابتسم الشيخ وتجاهل سؤاله، ولكنه من اللمحة الأولى أدرك الشيخ بفصاحته أن (علام) أفضل من يصلح في ما يصبو إليه وتلك النظرة العابثة في العين لا يخطئها أبدًا فأمثاله هم من يسعوا للشروع في أي شيء لتغيّر حالهم فهو الأولى بأن يتعلم، بدأ الشيخ (اسفي) يشرح في مسائل أخرى مما جعل الشاب يلوم نفسه على قطع تلك المسافة حتى انتهى الشيخ من حديثه، وقبل أن يغادر نادى لصبيه وتمتم ببعض الكلمات

في أذنه فأوماً الصبي وذهب وسط هذا الحشد وقال:

- يا مصري! إن سيدي اسفي يريدك.

كان لحظة لا تصدق بالنسبة له، مشى برفقة الصبي حتى دخل خيمة العراف، تفحصه (اسفي) بعينه قائلاً بخبث:

- من أخبرك بأمر هذا الكتاب يا علام؟

كانت الكلمات لا تريد أن تخرج من فم (علام):

- إنه صديق، صديق قال لي عن هذا الكتاب وأخبرني أيضاً عنك، وأنه لا يملك هذا الكتاب بالنسخة الأصلية إلا رجل في المغرب يدعي اسفي.

ابتسم الشيخ وقال بابتسامة شيطانية:

- وهل تظن أنك بمجرد أن تقول أخبرني عنه سأخبرك؟

استعجب (علام) من قول الشيخ فقال باندهاش:

- نعم ولم لا؟

تكلم الشيخ وعلى وجهه ذات الابتسامة الشيطانية ونظرته الخبيثة:

- أعلم.. أعلم أنها نار المعرفة، النار التي لا يجب أن يحيط بها أي مخلوق علمًا، ولكنك تريد التمرد على ذاتك ودنياك وجميع المحظورات، ولكني سأخبرك أمرًا سأصطحبك معي لأيام فإذا رأيت فيك جدية التعلم.. لن أخبرك عن الكتاب بل سأعطيه لك!

ظل (علام) مع الشيخ في كل مجلس كان الشيخ (اسفي) يتابعه ويختبره لسنين عده وفي كل مرة ينجح (علام) في تلك الاختبارات ويزداد تعلم عن أمور السحر من هذا الرجل فذاع صيت (علام) المصري بين أسواق السحرة فاشتد الكره له بل وخطط لمكيدة لقتله فعلم الشيخ (اسفي) وأعطى له الكتاب وقال له:

- لم أصدق يومًا أن أعطي هذا السر لأحد، بل كنت دومًا أظن أنه سيموت معي حتى ظهرت أنت يا ولدي وفي أول جلسة رأيت نبوءة تخبرني أن أسلم لك هذا الكتاب وكنت

فقط أختبرك لأتحقق منها، خذ هذا الكتاب وهذا الخاتم فإنه ملكك الآن، وفرّ من هنا فإنك مهما تطول ستصبح غريبًا يا ولدي..

أخذ (علام) الكتاب وفرّ بناقته في الصحراء، وعندما لاح في الأفق يعتلي السراب مثل مارد ينوي أن يشق الفضاء يغادر قبيلة (اسفي) ظلت تهز جسده الضعيف رياح الصحراء فيستجيب الجسد البائس بالرقص معها ولكن المسافر لا بُدَّ أن يمضي في طريقة، كان وحيدًا في العراء يتفقد آثار من سبقوه في هذا الطريق، كان الظلام جليلاً حتى وجد مجموعة من الناس جالسين في الصحراء ويشعلون النيران فاقترب منهم بناقته فرحّب به شخص منهم وطلب منه النزول، جلس معهم وقال الرجل إلى (علام):

- من أين أنت؟

- أنا مصري.

ظلّ ينظر الرجل على حقيبة (علام) بنظرة غريبة ثم تحدّث وقال:

- ستتناول معنا الطعام الآن.

الوضع أصبح مقلقًا بالنسبة إلى (علام) جميع من في المجلس كانوا ينظرون إليه ولا يتحدثون، شحيحون الكلام بطريقة مبالغة لم يتكلم فيه سوى الرجل الذي طلب منه النزول، الطعام أيضًا لا يوجد به الملح وعندما أنهوا الطعام ازداد الأمر غرابة فقد دخلوا خيمتهم ولم يتحدثوا إليه ولو بكلمة بل ظلوا يضحكون بطريقة هستيرية.. ضحكات سببت الرجفة في جسد (علام) الهزيل، فكر (علام) أن يذهب على الفور ولكن الهواء البارد قد منعه فنام بجانب النيران حتى أيقظه لهيب الشمس الحارقة، وعندما نظر إلى الخيمة ليشكر أهلها لم يجدها بل لم يجد النار من الأساس ولا الأطباق التي أكل عليها، في تلك الساعة استولت عليه القشعريرة والتي كان يقاوم في دفعها عن بدنه بكفاح الأبطال طيلة الليلة وتذكر قول شيخه (اسفي) في إحدى محاضراته «إذا استقبلك الجن بينهم، فهم قد اختاروك من آلاف المخلوقات فأكتم السر إذا شئت ألا يصيبوك بأذى»

علم أنهم أطعموه لأنه طاوعهم وسكت طيلة الجلسة ولم يسأل.. وتذكر أيضًا مقولة «إن الجن هو الشعب الصحراوي الوحيد الذي يتجنب إضافة الملح إلى طعامه»، ولكن الطعام

كيف كان الطعام لذيذًا إلى هذا الحد.

ركب (علام) ناقته وهو يعلم في نفسه أنه كان لأول مرة
يكون في ضيافة الجن.

مصر- (قرية الضاحي) بعد مرور خمسة عشر عامًا

رجع (علام) مصر ومعه كنزه والمتمثل في كتابه وذلك
الخاتم، وصل (علام) بيت أبيه فوجده قد فارق الحياة منذ
سنة وعدة أشهر لم يكثر لذلك، وفي الليلة الأولى فتح ذلك
المجلد وبدأ يقرأ بصوت جهوري.

- عندما تقرأ أول صفحة في الكتاب يتعمد الكاتب أن يسرد
لك مقدمته بشكل غير ممل، ولكني لن أفعل لك ذلك لأنك
تبحث عن ذلك الكتاب بمحض إرادتك وفضولك، أعلم أن
لمس الورقة غريب فلماذا أحب أن أوضح لك أن ورق
المجلد بالكامل من جلود الموتى، لا يقشع بدنك الآن فالهول
لا يزال بعيدًا.. إنني في هذا المجلد سأحدثك عن جنّي!
شيطان.. مخلوق غريب، ستفهم قصدي لاحقًا، ستعلم تاريخه

واستحضاره وكيفية الاتصال معه ربما لأنك مهتم بمعرفة الغيب والمستقبل وأيضًا حضارات الماضي.. ولكن سأخبرك هنا لا سبيل للتحرر سوى بالتضحية والدماء والكذب والنفاق في تلك الصفحات، لم يعد للمشاعر وجودٌ بعد الآن ولا يوجد مكان للشفقة، الآن ليس لديك حرية الاختيار فأنت في مستقرِّ أسياذ الأرض وسلاطين الظلام.. أنت في أرض النعمان فعليك الخضوع وتكون مسخًا لا يشعر لكي تتحرر.

ظَلَّ يقرأ (علام) ويتعلم في كل ليلة من هذا المجلد، يتعلم عن كائن يسمى (النعمان)، يتبع التعليمات حتى أصبح يراه أمام عينيه.. وبعد ذلك ذاع صيته وكرامته في قرية الضاحي.

(الفصل الرابع)

رحلت (نفيسة) مع أولادها من قرية الحسنية، لم ينسوا يومًا ذلك الجرح الأليم، ذكرى موت (رجب) أمام عينيهم، تمر عليهم في كل غمضة عين ليصحوا على أطلال الذكريات المسكونة بالألم الغارقة بالوجع والدموع والانهيار، لم يلبسوا في قرية الخالة أكثر من ثلاث سنوات حتى فاحت رائحتهم فخافت الخالة وقالت إلى (نفيسة):

- أختاه الناس علموا قصتك وزوجي يطلب مني...

سكتت الخالة ولم تكمل وانهمرت في البكاء ففهمت (نفيسة) وابتسمت وقالت بصوت هادئ:

- لا عليكِ فأنا أتفهم الأمر..

قامت من مجلسها واحتضنتها وهي تعلم أنه حزن الوداع الأخير.. حملت (نفسية) أغراضها وأخبرت أولادها أنهم سيغادرون، ظلت لا تجيب على أسئلتهم الملحة لمعرفة إلى أين هم ذاهبون ولكنها كانت لا تعلم في أي أرض سوف

تخطو قدمها وفي داخل نفسها قول واحد «بلاد الله واسعة» حتى وصلوا لقرية (ريحانة) التي تبعد عن مسقط رأسهم.

انتقلوا إلى قرية جديدة لا يعلمهم بها أحد، انتقلوا هو وأمه وأخوه (عصام) الذي كان لا يعلم اليوم المشؤوم الذي حدث لأبيه إلى الآن، كان (المعتصم) دائماً ما يخاف أن ينغمس بعلاقات مع أحد، لا يريد أن يفتش أي مخلوق عن ماضيه فهو دائماً ما كان يتوسل إلى أمه أن تترك بيت خالته بعد تلك الحادثة بسبب معاملة زوج خالته وأولادها وبعدها فاحت رائحة ماضيهم في قرية خالته تولى زمام أمور أمه وأخيه في سنه الصغير.

استأجروا داراً في هذه القرية التي تبعد عن قريته التي نشأ فيها بمئات الأميال وأصبح هدفه الأول والأخير أن يبدأ حياة جديدة، لم يكمل (المعتصم) تعليمه بل ظل يتنقل بين الحرف والصناعات حوالي خمس سنوات حتى عمل في مراتب في منتصف القرية، ظل يعمل بها عامين ينظف ويلمع السيارات وأمّه تخدم في البيوت، أعجب به صاحب المراتب

والذي يدعى الشيخ (علاء) لأمانته ونشاطه وأخذه تحت ظله حتى أصبح (المعتصم) كبير العمال في ظرف سنتين فقط، وذات ليلة جاءت المرائب فتاة جميلة بعينين سوداوين تلف على خصرها وشاحًا صوفيًا باللون الأصفر، سألتها (المعتصم) عن مرادها فأجابته أنها تريد أباهما فعلم أنها ابنة الشيخ وشعر من أول لقاء لهما بأن الحب والألفة ينسابان إلى قلبه والذي لم يذقه من قبل، تتردد بنت الشيخ للمرائب وصارا يتبادلان النظرات وأعينهم تفضحهم دون أن يتكلم أحدهما، ظلَّ (المعتصم) يختلق الأعذار ليذهب إلى بيت الشيخ حتى يراها فقط وكلما يراها يتلاشى جزء من أحاسيس الحزن والقهر والخوف من المجهول بل نسي تلك الأحداث المؤسفة التي يهرب دائمًا منها، أخذ منها موعدًا ليصارعها بما في قلبه من مشاعر تجاهها، لم يصدق أنها وافقت على تلك المقابلة خارج المرائب.

عَظُر جلاببه وأخذ ينظر لنفسه طويلًا في مرآة البيت وخرج وهو في سعادة لا حدود لها، ظل يفكر طيلة الطريق ما الذي سيقوله إليها وأصبح كالمجنون يحدث نفسه ويتخيل ردها إليه، وعندما رآها خفق قلبه من شدة حنينه إليها فرؤياها آنسته ما كان يرتبه من كلام طيلة الطريق اقترب منها وقال:

- اراك اليوم جميلة أكثر في عيني يا سارة.

ابتسمت سارة خجلاً، فأكمل وقال:

- سارة أريد أن أخبرك أنني أحبك، أنا لست ذلك الرجل
فياض المشاعر، ولكن أشعر دومًا عندما أراك أن أوتار الفرحة
تتراقص بداخي وشمعة الوجود تضيء لي الظلام الدامس
المحيط بطريقي.

تنصت له بابتسامة، لم يصدق (المعتصم) تلك البسمة التي
ارتسمت على وجهها، فهو لم يكن يتخيل أبدًا أنها تبادله نفس
الشعور حينما قالت:

- عندما رأيتك أول يوم شعرت بإحساس غريب تجاهك
يدفعني إليك..

ابتسم (المعتصم) ليباغت ردها ويفاجئها:

- سأتي إلى أبيك.. وأعتقد أنه لن يرفض ذلك.

رجع (المعتصم) إلى البيت فرحًا، وعندما شاهدته (نفيسة) بتلك الحالة قالت في ابتسام:

- لم أرك منذ مدة طويلة فرحًا كمثل اليوم؟ ماذا حدث؟

أخبرها (المعتصم) عن نيته لخطبة (ساره) والذهاب إلى فتح ذلك الأمر مع أبيها الشيخ (علاء) ففرحت أمه بهذا الخبر السار واستشرق وجهها ونوت أن تذهب معه فرفض (المعتصم) ذلك الأمر وقال بخجل:

- يا أماه إنني فقط سأطلعه بهذا الأمر، وإذا وافق على خطبتي من سارة بالتأكيد ستذهبين معي.

في المساء دلف (المعتصم) من باب بيته واتجه لمنزل الشيخ (علاء) وعندما وصل دق على الباب، ففتحت (سارة) وتقابلت نظراتهما ووجهها متبسمة بخجل شديد حتى قاطع هذه اللحظة صوت أبيها مندفعًا:

- مَنْ الطارق يا سارة؟

فقال على استحياء:

- إنه المعتصم يا أبي.

لم يدرك الشيخ (علاء) سبب قدوم (المعتصم) في ذلك الوقت فأمرها بدخوله وأقبل عليه وقال:

- مرحبًا بابني الغالي.

- مرحب بك يا شيخ علاء..

- هل حدث مكروه في المرائب؟

- لا يا شيخنا لا قدر الله لم آتِ إلى هنا لذلك السبب، ولكنني أريد أن أفاتحك في موضوع ما.

ضايقه الشيخ وهو مستعجب من أمره، وأخبره (المعتصم) عما يريد ويعتذر له أنه لم يفاتحه في هذا الموضوع في المرائب بسبب العمال.

- يا والدي أنا حقًا أشهد الله أنك من أحب الناس إلى قلبي وأشرفهم خلقًا ولكن حقًا أنت فاجأتني..

اندهش (المعتصم) من قول الشيخ فردًا:

- ولماذا فاجأتك يا شيخ علاء.. ما العجب في الأمر؟

نظر الشيخ في عينيه وقال:

- إنني أثق بك على مدار عامين، ولكن تظل غامضًا بنسبة إليّ.. فأنا مثلًا لا أعلم من أين أنت؟ ما نسبك وأصلك؟ أنت تعلم هذه قواعد بلدتنا.

تلعثم (المعتصم) من هذا السؤال ولكنه اهتدى لأمرٍ ما.. ففضل أن يخبره بقرية أبيه القديمة قرية الضاحي وقصة أمه عن عائلة الطايح ويطمس قصة نشأته في قريته المشؤومة الحسنية والتي حدث بها كل ما لا يود معرفته لمخلوق، لكنه لم يقدر على ذلك.

رجع (المعتصم) مهمومًا يفكر في نظرات ذلك الشيخ لم يكن ذلك السؤال في حسبانته، فتح باب بيته بضيق شديد وكانت أمه في انتظاره لم يتحدث معها ودخل إلى غرفته فتعجبت أمه وهمت بملاحظته متسائلة:

- ماذا حدث يا معتصم؟

انفجر (المعتصم) فيها كالبركان الثائر:

- ماذا حدث؟.. سأخبرك بما حدث، عندما طلبت خطبة مَن أحببت خجلت من نسبي يا أمي.. خفت أن أذكر مَن أكون أمام أبيها! إن ماضيكم العفن يلحق بي ويطاردني.. والآن أنا في انتظار خبايا قدرٍ يخبئ لي المتاعب، لماذا؟ قولي لي لماذا أعاقب على ذنبٍ لم أقترفه، أظن أنك لا تمتلكين الإجابة.. اتركيني وشأني

خرجت (نفيسة) وعلى وجهها نظرات الأسى ولم تتفوه بكلمة.

الشيخ (علاء) كان لديه أساليبه في معرفة من هو (المعتصم) ف لديه أحد الأقارب يعمل في الأجهزة الاستخبارية فاستعان به للتفاصيل عن حياة ذلك الشاب وعلمَ الشيخ كل ماضيه وسحر أبيه، وبعد أيام معدودة كان (المعتصم) يتابع عمله حتى فوجئ بالشيخ (علاء) يدخل عليه وعلى وجهه العبوس وأمره بصوت عالٍ أمام العمال أن يأتي له في الخارج، استغرب (المعتصم) من تلك النعمة التي

يحدثه بها الشيخ وأقبل عليه.

- علمت من أنت يا ابن الساحر.. طلبك عندي مرفوض،
واخرج من هنا الآن ولا أريد رؤيتك مرة أخرى.

انتشر الخبر مرة أخرى في القرية الجديدة كالنار التي تآكل
القش عن كونه ابن العراف، وبدأ الخوف من المجهول
ينساب مرة أخرى داخل عقله، وضاق به الحال عليه وعلى
أمه والتي رفض الناس دخولها لبيوتهم بعد علمهم تلك
القصة.

لم يعلم (المعتصم) كيف سيقضي أيامه هو وعائلته بعد
نفاد آخر ما يمتلكونه من أموال كيف سيأكلون ويشربون،
وظلّ يفكر بجدية لمغادرة القرية، حتى توقف عن شروده
ونفض من فراشه ووقف أمام زجاج مرآة مكسور محددًا في
انعكاس صورته في صمت تام، اقترب منها حتى كاد يلتصق
بها، أربعة وعشرون عامًا من اللا شيء حتى بدأ يتحسس
وجهه وينظر لبشرته البيضاء والتي توارثها عن أمه، وجه
يغزو أكثره شعر لحيته الأشعث غير المهذب، عينان لونهما
أسود قاتم تكادان أن تكونا خاويتين من المشاعر وفم يعلوه
شاربٌ سميك، وقد توارث جسده النحيل الذي يشبه جسد

يحدثه بها الشيخ وأقبل عليه.

- علمت من أنت يا ابن الساحر.. طلبك عندي مرفوض،
واخرج من هنا الآن ولا أريد رؤيتك مرة أخرى.

انتشر الخبر مرة أخرى في القرية الجديدة كالنار التي تآكل
القش عن كونه ابن العراف، وبدأ الخوف من المجهول
ينساب مرة أخرى داخل عقله، وضاق به الحال عليه وعلى
أمه والتي رفض الناس دخولها لبيوتهم بعد علمهم تلك
القصة.

لم يعلم (المعتصم) كيف سيقضي أيامه هو وعائلته بعد
نفاد آخر ما يمتلكونه من أموال كيف سيأكلون ويشربون،
وظلّ يفكر بجدية لمغادرة القرية، حتى توقف عن شروده
ونفض من فراشه ووقف أمام زجاج مرآة مكسور محددًا في
انعكاس صورته في صمت تام، اقترب منها حتى كاد يلتصق
بها، أربعة وعشرون عامًا من اللا شيء حتى بدأ يتحسس
وجهه وينظر لبشرته البيضاء والتي توارثها عن أمه، وجه
يغزو أكثره شعر لحيته الأشعث غير المهذب، عينان لونهما
أسود قاتم تكادان أن تكونا خاويتين من المشاعر وفم يعلوه
شاربٌ سميك، وقد توارث جسده النحيل الذي يشبه جسد

مراهق لم يتعدَّ الثامنة عشرة وحاجبيه الغليظين من أبيه،
تدلى بخطوات بطيئة وارتدى جلبابًا نظيفًا معلقًا وراء الباب
الخشبي في غرفته، ثم دلف للردهة وجلس على الحصير
بجانب أمه والتي كانت تعد الخبز في فرن صغير وتحدثت
قائلة:

- سأعدّ لك الشاي والخبز؟

- لا. لا أريد يا أمي.

ووسط هذا السكون ارتفع صوت الناس خارج المنزل
يصرخون ويهللون، ظلت والدته تسترق السمع بأبصار
مفزوعة وجميع من في القرية يهرولون ويسمعون أصوات
أقدامهم التي تتسابق بجانب دارهم وهم جالسون في
منتصف الردهة، فنهض (المعتصم) متجهًا لباب داره ليعرف
ما يحدث، فشاهد بيت عمدة القرية يحترق والناس
مجتمعون حوله ويحاولون إطفاءه بالمياه.

أسرع (المعتصم) لداره وحمل دلوًا كبيرًا به ماء لمساعدة
الناس، حاول جميع من في القرية إطفاء البيت، ولكن دون
فائدة، العمدة وأهله كانوا خارج البيت، ولكنهم يرددون

بخوفٍ شديدٍ أن لديهم طفلًا في الداخل مما جعل الناس في حسرة من أمرهم، لم تخدم النيران حتى جاءت عربات الإطفاء الحكومية وبعد عناء طويل هدأت النيران، جميع من في البيت كانوا يجزمون أن الطفل حُرِق بالتأكيد، ولكن المفاجأة كانت قوية لأهل القرية الذين دخلوا إلى المنزل، فوجدوا كل شيء في البيت قد تآكل من النيران فظنوا أن الطفل قد مات حتى سمع أحدهم صوتًا صادرًا من حَقَام البيت فأشار لهم بالسكوت وقال:

- أنصتوا جيدًا؟؟

كان صوتًا أجشَّ يتمتم بكلام غريب:

- ديس أبرتي، ديس كوآديش..

ظَلُّوا يسمعون أصواتًا تتمتم بكلام غريب آتِيًا من خلف باب الحَقَام. تقدم رجل منهم ودفع الباب فوجد الطفل داخل المرحاض ينظر إليه بعينين حادتين، فزع الرجل من هيئة الطفل فابتسم له الطفل نصف ابتسامة وهو يميل رأسه يسارًا قليلًا وعيناه تتبدلان لسواد قاتم، قائلاً بصوت غليظ:

- اقترب مني .. اقترب!

صاح الرجل في الجموع الذين يقفون من خلفه ويتابعون الأحداث:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

هرع الرجل واندفع للوراء، وبدا الجموع بالخروج مهرولين من شدة الرعب! وانتشرت مسامع قصة ابن العمدة تنتشر في القرية.

في منتصف الليل طرق العمدة باب دار (المعتصم) بعدما عجز عن علاج ابنه بالطب واستنفد كل حيله في شفاء ولده فخطر بباله أن يستعين بابن ذلك الرجل المبروك، ظنًا منه أن البركة تورت ولن يخسر أي شيء إذا قام بتجربته في شفاء ولده، فتح الباب (المعتصم) حينما أطرق عليه فشاهد العمدة يقف خلف الباب، ظلّ لبرهة يفكر ويسأل في نفسه: «هل جاء العمدة لطرده من القرية» ولكنه صعق حينما تحدث له العمدة

وقال:

- شيخنا المبارك.. أريد أن آخذ منك وقتًا قصيرًا.

تعجب (المعتصم) من تلك النعمة التي أحاطت بكلام عمدة القرية:

- بالتأكيد يا سيد فضل، إن هذا الدار دارك.

تقدم العمدة (فضل) بالدخول للدار، وقبل أن يجلس مسح بمنديل أخرجه من جيب جلبابه الأسود اللامع وأزال الأتربة عن الكرسي وجلس وهو يخلع عمامته من فوق رأسه فجلس بجانبه (المعتصم) وتحدث:

- لعلها زيارة خير يا سيد فضل.

- الخير في وجودك يا شيخنا.

استعجب (المعتصم) من قول العمدة وترديده لكلمة شيخ باستمرار فسأله مستنكرًا:

- ولم تنادينني بالشيخ؟

فنظر العمدة له في تواضع و احترام قائلاً:

- هذا قدرك يارجل... أأسلب منك قدرك؟ إنك ابن العراف.

ابتسم (المعتصم) من أعماق قلبه وهو يحدق بنظراته للعمدة، يفكر في أمر الناس و غرابتهم قادرين على تغيير المسميات بحسب أهوائهم و مقاصدهم فمن فترة و جيزة كان يدعى الملعون ابن الساحر الفاسق و الآن يدعو الشيخ المبروك و يدق على بابه ليستعين به، نظر إليه المعتصم متحدثاً:

- و ماذا تريد يا سيد فضل؟

- أريد انكشاف غُمة طفلي، أريد علاجه من عِلته.

قالها العمدة في توسل فنظر إليه (المعتصم) قائلاً:

- قص لي ما أمره...؟

- ولم تنادينني بالشيخ؟

فنظر العمدة له في تواضع و احترام قائلاً:

- هذا قدرك يارجل... أأسلب منك قدرك؟ إنك ابن العراف.

ابتسم (المعتصم) من أعماق قلبه وهو يحدق بنظراته للعمدة، يفكر في أمر الناس و غرابتهم قادرين على تغيير المسميات بحسب أهوائهم و مقاصدهم فمن فترة و جيزة كان يدعى الملعون ابن الساحر الفاسق و الآن يدعو الشيخ المبروك و يدق على بابه ليستعين به، نظر إليه المعتصم متحدثاً:

- و ماذا تريد يا سيد فضل؟

- أريد انكشاف غُمة طفلي، أريد علاجه من عِلته.

قالها العمدة في توسل فنظر إليه (المعتصم) قائلاً:

- قص لي ما أمره...؟

بدأ يقص العمدة حكاية طفله بتأثر وخوف:

- عندما رأيته أول مرة سكنت قلبي، أحببتها من أول نظرة، كانت تعمل في إحد أراضينا الزراعية تدعي شمس وهي أيضًا كانت كالشمس في أوج ظهورها، ورغم صغر سنها والتي لم تتجاوز الخمسة عشر عامًا إلا أنني تقدمت لخطبتها كعادة قريتنا، وافق أبوها الذي يعمل غفيرًا بسيطًا لدي أبي في ذلك الوقت وشعر بأنه ابتسم له القدر فابنته ستكون زوجة ابن عمدة القرية، أمي لم تكن مرحبة بذلك العرس ولكني كنت أريد الصبي، كنت أريد من يحمل اسمي بعد مماتي فزوجاتي الأخريات يلدن الإناث وأنا كنت رجلًا مزواجًا لقد ورثت هذا الطبع من أبي، ولكني بعد شمس لم أتزوج فقد أنجبت طفلي الأول وأسميته حسين ولكنه مات بعد أسبوع واحد فقط، لا تتخيل أبدًا ما شعرت به عند سماعي ذلك الخبر، ولكن أنعم الله على الإنسان بالنسيان فنسيت وحملت شمس طفلنا الآخر ولكن عاودت الأقدار الكرة مرة أخرى والطفل لم يتعدَّ أسبوعه الأول، وأيضًا ثالث ذكوري من شمس حدث معه ذلك فذهبت للشيوخ والعرافين، قالوا لي إن أحدًا من زوجاتي فعلَ عملاً سحريًا مشؤومًا ونصحني بتطليقهم جميعًا ليفك هذا السحر ففعلت ذلك، ولكن عندما فعلت ذلك ماتت شمس بطريقة مفاجئة لم يكن

بها علة أو مرض، ومررت بفترة صعبة بعدها ورفضت الزواج مرة أخرى، ولكن عندما مات أبي وأصبحت العمدة فكرت بالأمر وعدلت عن قراري وتزوجت بامرأة بنت رجل من أعيان البلدة وأنجبت طفلي سعيد ولكنه لم يكن سعيدًا أبدًا، هذا الطفل مصدر لشؤمي وتعاستي، هذا الطفل مصدر رعيبي الدائم منذ ولادته وإذ صارت تحيط بي كل الأمور الغريبة.

تنهد وهو يتذكر كل شيء وكأنه المشهد يمر أمام عينيه
مستكملًا حديثه:

- أتذكر أول يوم ولادته وجدت كل الماشية في حوش المنزل مقتولة وبجانبها الثعابين تصدر فحيحًا مشؤومًا، بينما زوجتي مرضت مرضًا شديدًا وجف لبنها أما ذلك الطفل كان نائمًا طوال الوقت حتى ظننا أنه ميت، ولكن الحكماء والأطباء نفوا ذلك، حتى أصبح عمره ثلاث سنوات لم ينطق يومًا بحرف من كلامنا بل يتكلم لغة غريبة لم أسمعها من قبل ولم تكن حروفها تنم عن كلام الأطفال اللطيف بل الحروف كانت غليظة وشديدة النطق على طفل بعمره، ومن عادته في تلك الفترة أن ينام النهار ويتسقيظ طيلة الليل، لا يتحدث مع أحدٍ ولا ينام بجانب أمه وينظر لي بنظراتٍ مخيفة تصيب قلبي بالتعاسة والشقاء، وعند بلوغه سن

الخامسة تكلم بعض من الكلمات التي نفهمها مصاحبة بكلماته الغريبة فأحضرت له المدرسين والمحفظين ولكن دون فائدة، ولكني لاحظت شيئًا مهمًا؛ أن ولدي كان يكره سماع القرآن حتى صوت المذياع على الإذاعة القرآنية لا يطيقه فيجن جنونه ويكسر كل ما في المنزل كثور هائج وهو يغمغم بكلامه الغريب، وفي الليل يصدر كلمات غير مفهومة.. أتعلم أين يقول تلك الكلمات؟.. يغنيها في المرحاض في أواخر ساعات الليل، ناهيك عن افتراسه الطعام فطفل في السادسة من عمره قادرٌ على أكل خروف كامل، ذهبت به لكل خبير وطبيب وحكيم وشيخ وأفاق ولا أعلم ما العلة، كل هذا كان سرًا في عائلتنا، أما بعد هذه الواقعة وبعد حرق البيت لم أعد قادرًا على إخفاء أي شيء والآن أنا تحت طوعك أريد منك أن تخلصني من علة ولدي، أريد إنهاء كل هذا الكابوس اللعين.

نظر (المعتصم) له متظاهرًا الأسى بعد إنهائه لكلامه وهو يردّد قائلاً:

- هذه بالفعل مأساة يا سيد فضل أعانك الله عليها، أحضر لي الصبي في الغد وسأحول إن شاء الله.

نهض العمدة من كرسیه وهو يضبط عمامته ثم اتجه إلى باب الدار مودعًا (المعتصم) وتركه في حيرة من أمره ماذا يفعل؟ إنه لم يعلم أيّ شيء عما كان يفعله أبوه وسيد البلدة، قد ترك بابها والمشكلة التي يحكيها ليست بالهينة، ظلّ يفرك بوجهه الذي تصبب عرقًا وهو كالتائه في الصحراء ولا يعلم أين الاتجاه، كانت أمه تنصت لحديث العمدة من خلف أحد جدران الدار، فخرجت إلى (المعتصم) وهي تمصص شفيتها قائلة بسخرية:

- يظنك شيخًا؟

حدق بأمه ثم قال:

- وسأصبح مثلما يريد.

كانت كلماته هذه بمثابة صاعقة ضربت قلبها، اقتربت منه وهي تتأمله وترى فيه نظرة أبيه ومصيره فأمسكته من جلبابه وهي تهزه قائلة:

- أتريد أن تصبح مثل أبيك يا المعتصم؟

- ولمَ لا يا أمي، لقد طرقتوا على بابي؟ نحن كُتبت علينا تلك
السيرة هل سنجول في أنحاء الأرض باحثين عن مكان آخر؟
هل سأرحل وسيرة أبي تظل عالقة بي فما الفائدة؟

أعطى لأمه ظهره ثم أكمل:

- سواء وافقت أن أكون خليفة أبي أم لا سيوجد علينا
الخطر فالناس يا أمي يبحثون عن أصابع الاتهام لأي شخص
يلهيهم عما يقومون بفعله من آثام، ومن السهل أن يلقوها
بابن ساحر قديم، أنا لن أكون مثل أبي.. أبي كان مخطئًا
كبيرًا، كان خادمًا للأعيان وبينه وبين الناس حاجز كبير
ووسطاء، لذلك عند وقوعه أصبح كالثور الذي تنهال عليه
السكاكين، طبيعة البشر يا أمي هي النعمة فمهما حاولت لن
ترضي الناس، أعطيني يا أمي الخاتم والمجلد القديم سأكون
عراف القرية.

ظلت أمه مصدومة من قول ولدها فقالت بصرامة:

- أنا لن أعطيك ذلك المجلد والخاتم، لن أرى ذلك المشهد
مرة أخرى!

انفعل (المعتصم) على أمه وتبدلت ملامحه:

- قلت لك إنني لست زوجك!.. ستعطيني إياه، والآن، وإلا أقسم لك إنك لن تري وجهي مرة أخرى! لقد سئمت من تلك الحياة أرجوك لا تجعليني أندم على فعلة قد اقترفتها الآن!

شعرت والدته باضطرابات في مشاعرها، فهي تخاف على ولدها وفي نفس الوقت تخاف من تهديده ونظرات عينيه! فقالت تحت ضغط ابنها:

- سأعطيك الخاتم والمجلد، ولكن أريد أن توعدي أنك لن يحدث لك مكروه..!

ابتسم (المعتصم) واقترب منها وهو يضع كفه على خدها ثم قال:

- صدقيني، هذا وعد مني لك!

أنهى كلامه ثم ذهبت أمه لغرفتها لتعطيه الخاتم القديم والمجلد الورقي وهي مرغمة على ذلك، كان خاتمًا مطرزًا ومزركشًا باللون الفضي على شكل جمجمة، نظر له ثم وضعه

في إصبعه فأحسَّ برجفه تخللت في أطراف جسده ثم أمسك بالمجلد وفتحه ليقرأ أول سطورهِ، كانت مكتوبة بخط أبيه «لا سبيل للتحرر سوى التضحية بالدماء! فانت في مستقر أسياذ الأرض وسلاطين الظلام، أنت في أرض النعمان فدع روحك تجذبك إليّ، دع روحك تجذبك لعوالم الظلام في ليلة اكتمال البدر..»

لم يفهم (المعتصم) ما وجد في أول السطور فبدأ يقلب في المجلد ليجد رسومًا غريبة وكلامًا بلغة لم ترها عيناه من قبل، فأشعل لفافة من التبغ وهو جالس على الحصير يردد كلام في هذا المجلد ليحاول أن يفقه به أي شيء، أخذ يقلب في صفحات المجلد حتى وصل إلى نصفه فوجد كلامًا باللغة العربية: «النعمان.. النعمان..».

سمع (المعتصم) ذلك الاسم من قبل، سمعه من أمه حينما قصت له حكاية أبيه فأخذ يقرأ بصوت هادئ!

- فليق فليق.. أنيقًا أنيقًا.. حليقًا حليقًا.. برهيتا برهيتا.. بشراس.. كظهير.. أقسمت وعزمت عليك عند باب الهيكل الكبير، أحضروا واسمعوا وأطيعوا وكوني عونًا لي أيتها الملائكة النارية المائية والعلوية والسفلية أينما تكوني، بحق

أهيا شراھيا، بحق بيهرتايل فالتاتوا مسرعين بحق تورال
تورال تورال.. مسجان أظھروا لي وحققوا مرادي.

ظل يقرأ تلك التعزيمة ولم يفهم أي شيء، اقشعر بدن
(المعتصم) وخافت نفسه، صمت رهيب يعم في الغرفة
وعيناة ثاقتان على صورة أبيه وكأنه يهز رأسه يمينًا ويسارًا
ويتذكر ما حدث إليه.

بدأ يقرأ مرة أخرى والسخونة اشتدت من حوله وعرقه بدأ
بالتساقط على جبهته، لم يكثر للأمر إلا أن هناك أصواتًا
أخرى امتزجت في الغرفة، أصواتًا لم يستطع أن يحدد
مصدرها، بدت وكأنها صوت رياح عاتية. حتى سمع هاجس
ينادي في أذنه:

- اذهب للخلاء وارسم تلك الدائرة التي تراها في كتابك
هذا، واذبح قطة سوداء وأنت تردّد التعزيمة.

ارتجف من شدة فزعه وخوفه من ذلك الصوت الذي مزق
أحشاء السكون. علا وجهه الشحوب واصفرّ لونه، ولكنه تذكر
ما هو مقبل لفعله فخرج (المعتصم) في سواد الليل وأمسك
بقطة شاردة وهو يعرف هدفه وما المكان الذي سياوى إليه،

ظل يتجه إلى مقابر القرية متخفيًا، وعندما وصل فتح حقيبة صغيرة بها مجموعة من الشموع والطباشير، أخذ يرسم دائرة خماسية كبيرة ثم أضاء من حولها الشموع وبدون رحمة ذبح القطة ولطخ بدمائها تلك الدائرة ثم بدأ يردد:

- فليق فليق.. أنيقا أنيقا.. حليقًا حليقًا.. برهيتا برهيتا.. بشراس.. كظهير.. أقسمت وعزمت عليك عند باب الهيكل الكبير، أحضروا واسمعوا وأطيعوا وكوني عونًا لي أيتها الملائكة النارية المائية والعلوية والسفلية أينما تكونوا، بحق أهيا شراهيا، بحق بيهرتايل فلتأتوا مسرعين بحق تورال تورال تورال .. مسجان اظهروا لي وحققوا مرادي.

اقتربت من فوقه مجموعة من الغربان كانت تطير وتصدر نعيقا مشؤوم جعل جسده يترتعد وبرزت شعيرات يديه من شدة الخوف حتى سمع صوتًا آتيًا لا يعلم كنهه ولا من أي مصدر أتى لمسامعه، يقول:

- الآن تعرف وتفهم.. لا سبيل أمامك للعودة أو الهرب لأنك حينها ستلقى مصيرًا أسوأ من الموت.

ظَلَّ يتلفت يمينًا ويسارًا باحثًا عن مصدر الصوت ولأول
مرة يلوم نفسه ويفكر أن يعدل عن هذا الفعل.. الرعب جمّده
تأبى عضلات جسده الحركة ولا تستجيب له، أحسّ بالدوار
وشعر بخيالات كثيرة تحيط به من جميع الاتجاهات تصدر
أصواتًا صاخبة جعلته يضع يديه على أذنيه وهو يترنح
ويصرخ فهوى فاقداً للوعي..

(الفصل الخامس)

سمعت (نفيسة) صوت غلق الباب في هذا الوقت المتأخر، فضاقت صدرها وظلت تفكر فيما يقبل عليه ولدها، نهضت من سريرها ودلفت من باب غرفتها، وسارت نحو (عصام) الصغير، فوجدته مستيقظًا على سريرته حاملاً دفتراً وقلماً وجالسًا منحنى الظهر وشاردًا في كتابته!، فقطع ذلك الهدوء صوت (نفيسة) قائلة بغضب شديد:

- لماذا لم تتم حتى الآن؟..

هلع (عصام) وارتجف جسده من صوتها فقد كان ساهمًا ثم نظر إليها!، لاحظت الأم أن (عصام) قد ترقرقت الدموع في عينيه ونزلت قطرة، كانت تعلم طريقها على خديه، فقالت (نفيسة):

- أكنت تبكي!

اقتربت منه وأكملت:

- لماذا؟ لماذا تبكي يا حبيبي؟ ماذا بك أخبرني..

لم يجيبها فأمدت يدها لتأخذ الدفتر وبخفة منعها وضمه
لحضنه! فابتسمت (نفيسة) بعطف بالغ وقالت:

- أتخبئي عن أمك أسرارك؟

بكي (عصام) وهو ينظر إليها بصوت مليء بالهوان:

- لقد ذلني مُعلّمي وجعل كل زملائي يضحكون، وقال إن
أبي كان ساحرًا يفرّق بين الناس ويضرهم فقلت له لا
تتحدث عن أبي بتلك الطريقة فعاقبني وجعلني واقفًا طيلة
اليوم، وأصبحت زملائي تنعتني بابن الساحر..

نظر إلى عينيها بترجّ وقال:

- إن أبي ليس كذلك صحيح؟

شعرت أمه بالاضطراب كانت عيناه تبحثان عن أي كلمات
فقال:

- سأذهب إلى هذا المعلم وسأعنفه أنا وأخوك لما قاله عن
أبيك..

فأكملت بضحكة مصطنعة تخفي وراءها الكثير من الوهن
والضيق.

- أرني الدفتر وأخبرني عما كنت تفعله..

أعطائها (عصام) الدفتر بمودة فبدأت تضحك معه على
رسوماته للمدرسة وهو يخبرها أنه حرقها بما فيها.

عاد (المعتصم) ببصره ليجد نفسه في منفرج بين جبلين
وحده وسط الخلاء لا يحيطه بشر ولا مخلوق، وهو ممسك
بيديه المجلد في تعجب واستغراب، لا يصدق ما يراه ويسأل
في نفسه «أين أنا؟»

يدور بجسده وينظر ببصره فلا يجد بعينه سوى الصحراء
الواسعة والسماء السوداء القاتمة خالية من النجوم والسكون
كسوة المكان، يشعر (المعتصم) بالدم قد تجمّد في عروقه

غير مصدقٍ بما هو عليه وهو يميل برأسه يمينًا ويسارًا في قلق، يحك عينيه ليتأكد أنه مستيقظ وهو يسير لكن دون جدوى، أراد معرفة ما سر هذا المكان وأين هو، فمنذ لحظات معدودة كان في أرض المقابر الخاوية! لم يجد إجابة ولا يعلم أين هو فحاول خلع الخاتم من يده بلا هوادة أكثر من مرة لكنه مثبت داخل إصبعه بإحكام شديد، جلس على ركبتيه واليأس يدركه وهو منحني الرأس يرتجف جسده من شدة البرد حتى خرجت منه صرخة عاتية:

- أين أنا!!

سمع صدى صوته يدوي في الصحراء وبعد بضع لحظات، ضربت السماء بصاعقة قوية صاعقة لم يرَ مثلها قبل ذلك، رفع رأسه ببطء وخوف وهو يضع يديه فوق عينيه من أثر الرمال وينظر للسماء، شعر وكأنها ليست السماء التي اعتاد النظر إليها فالغيوم الداكنة المتوهجة ملأتها وكأنها كرات من نار، وقف في تعجب وهو يراقب بطن السماء التي تتهاوى وتتراقص وبرق السماء يكاد من شدة ضوئه أن يفقده بصره، ظل يسير متعجبًا ويتقدم بخطوات بطيئة وهو يراقب السماء، يترجل حاملاً مجلده اللعين حتى ترتطم قدماه بشيءٍ صلبٍ، كان يظنه حجارة ولكن مع ضوء البرق انتفض

قلبه بشدة فحينما نظر للأرض وجد مجموعة من الهياكل العظمية المبعثرة، كلما يضرب برق السماء يجد هياكل وعظام جمام أكثر وأكثر ولا يرى سواها، صك أسنانه من الارتجاف وبال على نفسه من شدة خوفه، وكأنه يعلم مصيره الآن.. صاح (المعتصم) وهو يبكي وتخرج منه صرخة زعر مفاجئة:

- اللعنة! أين أنا يا ربي؟!

أغشي عليه لدقائق حتى ظهر نور يتجلى من السماء منعكسًا على عينيه ليفيقه من ثباته فرأى نورًا عموديًا كجبل ساقط من السماء، نظر إليه في فزع وهو يتأمل المنظر المهيب، رأى شكلاً خشبيًا كبيرًا ومثبتًا به رجل وعلى رأسه غريبان ينهشون في رأسه، استولت عليه قشعريرة حاول جاهدًا أن يقترب بخطوات بطيئة منه حينها طار الغريبان عندما شعروا باقترابه.

وقف (المعتصم) على بعد بضعة أمتار من ذلك الرجل المثبت وهو في خشية من المشهد الذي يراه أمامه، رجل يميل برأسه للأسفل وتتساقط الدماء من وجهه وهو عارٍ تمامًا إلا من قطعة واحدة تداري عورته بمنتصف جسده، رفع

الرجل رأسه في بطءٍ وكأنه هو أيضًا يشعر بـ (المعتصم)،
وجد (المعتصم) عينيه المفقودتين من آثار مناقير الغربان
تنظران له وعلى جبينه مكتوب (علام)، يضحك بصوت عالٍ
يملاً أرجاء الصحراء ويقول:

- يا فتى، إذا استقبلوك بينهم فقد اختاروك بين آلاف
المخلوقات، اكنم السر إذا شئت ألا يصيبوك بأذى ولا تتمرد
عليهم فاحذر من غضبهم عليك!

فزع (المعتصم) وسقط أرضاً وهو يزحف للخلف وهو
يبكي من هول ما رآه متنفساً بصعوبة، ركض مبتعداً نحو
المجهول، لا يسمع سوى صوت خفق قلبه وازدياد ضرباته
وصوت أنفاسه المتلاحقة، ينظر خلفه ليجد الضوء يختفي
شيئاً فشيئاً.

مرّ بعض الوقت وهو يسير ولا يعلم أين وجهته، أحسّ بهزة
أرضية من خلفه، تزامنت مع أصوات غريبة لمزامير ودفوف
فنظر خلفه فجأة ليجد الأرض تنهار وتنشق وتبلع كل ما فيها،
بدأ بالرجوع بضع خطوات للخلف وهو يراقب المنظر
للحظات، لا يجد سوى أن يضع المجلد في أحد جيوبه
ويركض في زهول، يصرخ وهو يتمنى من الله أن يكون

حلماً ويستيقظ عما قريب.

رأى صخور الجبال تنهاوى للأسفل وهو يحاول تفاديها مسرعاً، يركض للمجهول ولا يعلم أين يذهب في هذا المنفرج الطويل، شعر في قلبه باقتراب الموت المحتوم وصرخ في نفسه مترجياً القدر بأن ينجيه، رأى أمامه نفقاً ينبعث منه نور في آخر المنفرج فجرى إليه مسرعاً حتى وصل إليه واقفاً، لم يقدر على مواصلة الجري وظل يراقب قدره المحتوم وانشقاق الأرض الذي يلتهم كل شيء أمامه، استسلم للموت وحينما اقترب منه الانشقاق توقف فجأة عند فتحة النفق، ظلّ يضحك وهو يضرب رأسه بيديه ويتحدث بصوت عالٍ مستعجباً:

- لقد نجوت!! أحقاً؟

نظر حوله فوجد نفسه في نفق كبير، ارتفاعه يبلغ حوالي خمسة أمتار ومساحته كارتفاعه تقريباً، تفوح منه رائحة عفنة نفاذة والجدران العارية تشع بالألوان الخضراء، سار ويتأمل رسوماً وكتاباتٍ نُقِشت على الجدران، رسوم لمعارك تاريخية قديمة وحيوانات أسطورية لم يرها من قبل، في أسفل كل رسمة حروف متناثرة بعضها باللغة اللاتينية

وحروف بالعربية والعبرية وثمة حروف لا يعلم عنها شيئًا،
رأى أيضًا بعض من النجوم الخماسية وهي محاطة بدوائر
كبيرة!

ظَلَّ يتجول داخل النفق وهو يستعجب أمره كيف لا توجد
فيه أتربة أو خيوط عنكب وقوراض، كيف يتمتع بهذا النوع
المبالغ من النظافة، ظَلَّ يسير داخل النفق حتى توقف
(المعتصم) أمام باب مليء بالنقوش الغريبة، نقوش لم يرها
من قبل حتى وجد بعض الكلمات التي قرأها في الكتاب
منقوشة على ذلك الباب.

وضع (المعتصم) يده على الباب فانتفض مع صوت الباب
وهو ينفتح إلا أنه هناك أصوات أخرى امتزجت به، أصوات لا
يستطيع أن يحددها، وفي أول نظرة لما خلف الباب طالع
مساحة شاسعة تمتد أمام بصره وفي نهاية المكان بدا ما
يشبه المقعد الضخم عليه يستقر تمثال هائل الحجم ونقوش
تشبه تلك النقوش التي وضعت على خاتم أبيه، ارتفاع هذا
التمثال في وضع الجلوس يكاد يكون عشرين قدمًا فظَلَّ
يسأل نفسه «مَنْ الذي بنى هذا التمثال الرهيب وكم استغرق
من جهدٍ ووقتٍ؟» حتى سمع صوتًا لا يعلم مصدره فحرَّك
رأسه يمينًا ويسارًا، تأكَّد من خلو المكان فبدأت علامات

الرعب تظهر على وجهه، ظلّ ينصت لخطوات تترجل فنظر مجدداً ليجد خيالاً لشخص ما يقترب من وهو يبتلع ريقه ويصيح بصوت عالٍ متردداً صداه في أرجاء النفق:

- مَنْ هناك؟

فرأى كائناً طويل القامة لديه عينان بيضاوان ممسوحتان، يشبه المسخ إلى حدّ كبيرٍ تفوح منه رائحة كريهة ويرتدي تاجاً به ثعبان الكوبرا يتحرك داخل التاج، اقترب هذا الكائن من (المعتصم) وأخذ من يده المرتجفة المجلد وهو مبتسم غير مبالي له، رفع المجلد لأعلى كأنه وجد طفله الشارد وغمغم بكلمات غير مفهومة، رمق هذا الكائن (المعتصم) بنظرة مبتسمة وهو منحني برأسه لليمين وتحدّث له بصوت رخيم:

- أهلاً بك في أرض النعمان يا المعتصم.

انعقد لسانه من تلك المفاجأة وقال بارتجاف:

- مَنْ أنت، وكيف تعرف اسمي؟؟

اقترب الكائن منه وهو يبتسم قائلاً:

- أنا النعمان، أنا سيد الأحياء والأموات، أنا بوابة الأزمان
وأنت وجسدك محراب لقوتي الخالدة

اقشعر جسد (المعتصم) غير مصدقٍ لما يراه، إن هذا
(النعمان) الذي جعل والده خليفه له بعد موت (علام)،
استعاد (المعتصم) رشده وهو ينظر إليه في خوف من هيئته
مستفسراً:

- ولمَ تركت والدي يُقتل وهو خليفتك بعد علام، أهذا
عقابٌ له عندما تركك؟

نظر إليه (النعمان) بعين شيطان بثت الرعب في قلب
(المعتصم) وظلّ يضحك قائلاً:

- تركني؟ وهل تظن أن أحداً يتركني بتلك السهولة؟ أنا لا
أترك من يخالف عهودي وقوانيني؟ والدك قتل ليس بسببي
ولكنه بسبب قلة معرفته أن من يتمرد على قوانيني مصيره
مثل المعتوه علام.

تكلّم (المعصّم) بثبات وقال متعجبًا:

- أمي أخبرتني بتوبته وتغيّر اسمه، وعندما عاد إليك تركته..

- إذًا سأقص عليك ما حدث مع أبيك وما حدث في قرية الضاحي لأنك لا تعرف الكثير عنه وأنصت كما سمعت من أمك وعليك الحكم؟

ابتعد عنه (النعمان) وهو ينظر للجدران، وبدأ يسرد له ما لا يعلمه (المعصّم).

«تجتمع الرجال والنساء بالصفوف حول بيت (رجب) باحثين عن حلّ لعِلَّتْهم، ويخطب فيهم رجل يدعى (طه الأعرج) بشرته زيتونية ويمسح بشعره المجعد بيده وهو يتكلّم بضيق، أما يده الأخرى تتسند على عصاه بسبب قدمه المبتورة تحدّث وقال:

- كفاكم جلبة وصخبًا! إن العراف (رجب) مُتعب اليوم،

اذهبوا وائتوا في الغدا!

لبث (طه) في بيت العراف كمنظم من زمن بعيد، فهو يعمل في هذا البيت منذ أن كان يسكنه (علام) وقد اصطفاه (رجب) ليكون ذراعه اليمنى، كان (طه) غير أمين مع الجموع فيبدل الأدوار لمن يقدّم له العطايا قبل مقابلة العرّاف، كان يدرك سبب الإقبال من النسوة على (رجب) في هذه السنة من القرى المجاورة فهم قلقات على أولادهن وأزواجهن من أثر الحرب فينبعثن إلى العرّاف لمعرفة هل هم أموات أم على قيد الحياة ويطمئنهن. ذاع صيت (رجب) أكثر في تلك السنة بالتحديد! وازداد الطلب عن الغيبيات، فبات (رجب) يتضرع إلى اتباعه يخبرونه أمورًا ويغفلون عن الكثير، شعر بالعجز أوقاتًا كثيرة، يجلس على كرسية الخشبي المطرز ويخفض أضواء مصباح الجاز ويضع على موقده بخور الشذاب والحلتيت ويلقي بعزائمه الكفرية، فتتصاعد أدخنة البخور لتملأ الغرفة وهو يضمها إليه مغمضًا عينيه! فيظهر له كيان متشكل على هيئة حيوان كرية المنظر والصورة ويخبره ما يريد سماعه.

علم (رجب) بمرض أبيه، فأقدم على بيته وفتحت الباب له أخته (ثنية) وهي تضع على خصلاتها غطاءً قماشياً خفيفاً

ويتدلى على جبينها بعض من شعرها الأصفر، كانت (ثنية) شقراء لا تشبه أخواتها وأبويها بل تشبه جدتها (خديجة) بعينيها الزرقاوين الواسعتين كالهر الصغير ووجهها المستدير، قابلته (ثنية) بجفاء وقالت:

- ماذا تريد؟

ابتسم (رجب) ودفعها بعنف.

- تهذي يا ثينة عندما تتحدثين مع الأكبر منك سناً وقدرًا، لقد حملتك وأنتِ رضیعة والآن تنهريني بوجه عبوس!

أكمل (رجب) خطواته فوجد أمه وأخاه (حسان) يجلسان على الأريكة وعندما تطلعا به، كاد أن ينقض عليه (حسان) لولا أن أمه أمسكت بيده وقال:

- خسئت يا عدو الله! وطرحت بقدمك لبيت الظهرا!!

علامات الخوف كانت بادية على وجوه النسوة التي تقطن البيت، فتكلمت الأم وهي تخفي ما بداخلها من شوق لولدها:

- لماذا جئت يا رجب، إن والدك أصابه العجز والضعف، ولا يريد رؤياك كفاك العار الذي طمسته به!

نظر إليها (حسان) في احتدام وسخط وارتفع صوته وقال:

- لماذا تتحدثين معه بتلك الطريقة وكأنه قد سرق ثيابي؟ هذا كافر آشر والآن تنعتينه بولدي!!

شاور عليه، وأكمل كلامه مندفعًا:

- وأبي أخبرك أن هذا المسخ!! قد مات منذ سنين؟

كان ذلك المنظر يثير الريبة في (صفية) زوجة (حسان) فاشتد فزعها واضطرابها وهي قلقة على زوجها من (رجب) وردة فعله فجفَّ حلقها وهي تتابع نظرات (رجب) وابتسامته اللئيمة، باتت تتابع تنهيداته وكلامه حينما قال:

- انتهيت الآن من كلامك؟ لا تخف يا حسان أنا لن أطلب ورثي!! سأتركه لك بمحض إرادتي وعن طيب خاطر، أنت رجل أرعن يا حسان ومنافق تريد أن تظهر الآن في زي

استدار رجب ووضع وجهه في وجه (صفية) وقال:

- فعندك مثلاً صفية المسكينة!.. قولي لي يا صفية، أخبرك حسان عن زوجته الأخرى في العاصمة؟

شهقت (صفية) وبرزت عيناها.. فالتفت (رجب) برأسه وهو يرمق (حسان) بنظرة متعجبة وقال:

- لا لا؟ أحقاً لم تخبرها بهذا!.. إذاً أيضاً لم تخبر محمد أنه لديه أختان أخريان؟! هذا حلال يا حسان أنت لم تفعل إثماً فلم تخفيه!! ولكن تحب أن أكشف لك الحرام حقاً؟

اقترب رجب من أمه ونظر في عينيها فظلت تبعد عينيها عنه..

- أنا لست شيطاناً يا أمي!.. الشيطان يوجد هنا يوجد بينكم يضللكم؟ هذا الأخرق مضى أبي على أرضه الشرقية.. فلن يكون لثنية أو فاطمة حتى أبناء عثمان الجالسين بجوارك لن يكون لهم شيء في وجود هذا الشيطان!

- ماذا تقول يارزِيل!.. والله لن تخرج من هذا البيت حيًّا!

اندفع إليه (حسان) ليلكمه! حتى سمعوا صوت (الطابع) يدب بعصاه الأرض ويسعل.. هرولت إليه النسوة!!، ونظر إليه الإخوان وهو مصرع أرضًا وشفقتا (رجب) تهرعان من الدم، ظلت النسوة تنزله على السلم حتى وصل إلى إحدى الأرائك ونهض (رجب) وحسان وتكلم (الطابع) بصوت مبحوح مصحوب بسعال:

- الحمد لله أن وهبني الله عمرًا لأراك مرة أخرى!

كانت عينا (رجب) تنظران للأرض وهو يقول بخجل:

- لقد علمت أنك رقيب الفراش فوددت أن أطمئن عليك!

- تطمئن عليّ أم تضع عملاً هنا وهناك ليضرني أو يضر إخوتك من بعدي!

شعر (رجب) بثقل الكلمة على قلبه فجرحته فحدق في والده باستشاشة بالغة وقال:

- ماذا تقول يارزِيل!.. والله لن تخرج من هذا البيت حيًّا!

اندفع إليه (حسان) ليلكمه! حتى سمعوا صوت (الطابع) يدب بعصاه الأرض ويسعل.. هرولت إليه النسوة!!، ونظر إليه الإخوان وهو مصرع أرضًا وشفقتا (رجب) تهرعان من الدم، ظلت النسوة تنزله على السلم حتى وصل إلى إحدى الأرائك ونهض (رجب) وحسان وتكلم (الطابع) بصوت مبحوح مصحوب بسعال:

- الحمد لله أن وهبني الله عمرًا لأراك مرة أخرى!

كانت عينا (رجب) تنظران للأرض وهو يقول بخجل:

- لقد علمت أنك رقيب الفراش فوددت أن أطمئن عليك!

- تطمئن عليّ أم تضع عملاً هنا وهناك ليضرني أو يضر إخوتك من بعدي!

شعر (رجب) بثقل الكلمة على قلبه فجرحته فحدق في والده باستشاشة بالغة وقال:

- أتعلم يا أبي! أنت لا تستحق حتى مجيء إليك؟ أتعلم يا أبي أن ما أنا فيه الآن كشف أوراكم لي وما تكونه تجاهي!، لقد نسيت كل شيء، نسيت أنني ابنك الصغير..! ابنك الذي أنجبته بعد كهولتك..

ضحك (رجب) وأكمل:

- أنا لا أحسدك على صحتك.. لا! بل على إنك لم تحاول أن تفهمني يومًا، كل شيء أجبرتني عليه حتى زواجي أجبرتني عليه، اتجهت للخمر لعلي أنسى معاملتك لي..! آه بالمناسبة؟ من الذين يقطنون من حولك؟ أهم أحفادك؟ وبالنسبة للمعتصم لماذا تكرهونه؟ لماذا تكونه حقًا لطفل صغير ذنبه الوحيد كما تعتقدون أنتم إنه من ضلبي!؟

استدار (رجب) وهو ينظر في أعينهم وأكمل قائلاً:

- أنتم من تصنعون نار الشر وتنفخون فيها حتى تعلو وتعلو، وحين ترتفع تحاولون إخمادها ولكن يا أبي صدقني ليس في كل مرة ستخدم النيران.. أنا من أقول لك الآن إنني أتبرأ منكم!

غادر (رجب) بيت أبيه وهو يدفع الباب، وحينما وصل بيته من باب الخلفي وجد زوجته في انتظاره، لم يحب (رجب) زوجته يومًا لأنها تذكره بأبيه. وفي هذه الليلة شعر أنهم عائلته الوحيدة فأقبل على ابنه (المعتصم) وأخذه في حضنه، اقتربت منه (نفيسة) وقالت بلطف شديد:

- أظن أن ولدك القادم يجب أن يعيش حياة أفضل من هذه يا رجب.. كُفَّ عما تفعله من أجله.

تنهَّد بعمق وابتعد عنها دون أن يتفوّه بكلمة واحدة! وفي نفس اليوم زوّد من تضرعه وعزائمه ولأول مرة يظهر له (النعمان) بعينيه البيضوين الممسحوتين وقوامة المرتفع فارتعد من مظهره!

- أتخاف من سيدك يا رجب؟

- لا!!.. ولكن هيئتك جليلة يا مولاي..

- إذا أتيت لأخبرك أن تغادر هذه القرية كفاك منها!

- أغادر؟ كيف وأين أذهب!!؟

- الأرض واسعة والساحر ليس له أرض..! سمّ نفسك أي اسم غير رجب وامكث بضع سنين في تقشّف ولا تظهر مهارتك.

تعجّب رجب من مطلبه وقال:

- وكيف سأعيش يا سيدي النعمان؟ كيف وأنا لدي طفل!

- لا تسألني ما لا تحيط به علمًا؟ بل نفذ فقط! وتمنع في البداية.. تذكر تمنع عن خدمتهم في البداية!»

أنهى (النعمان) قصته التي جعلت (المعتصم) مشتتًا ويغوص في بحر أفكاره فأكمل النعمان وهو ينظر للجدران:

- إن هذه كانت قصة أبيك. أبوك لم يثب ولو كان فعلها اسأل نفسك؟ لم الكتاب والخاتم معك؟ إن كان قد تاب لما ظلوا معه أنتم بدوننا لا شيء نحن من نرشدكم..

رفع (النعمان) يده وهو يكمل:

- انظر للجدران!.. تلك الجدران بها رسومات لمعارك حدثت بينكم واستعنتم بقدراتنا وقوى بني جنسي، كلها كانت بسبب مكاسب ومطامع من أجل الأرض غافلين أنها ليست لكم من الأساس، لا أعلم مقدار مفهومك لكلامي، ولكني سأحاول تبسيط كلماتي، الأب يورث الأرض لابنه وأنه سيدها كيف وبأي منطق سيدها وأنتم ضعفاء في أسفل نقطة الهرم؟

اصطكت أسنان (المعتصم) وتكلم بتلعثم وهو مرتعد:

- أرجوك يا سيدي أين أنا... أرجوك أريد المغادرة.

ابتسم (النعمان) وهو يقول:

- ابن آدم خائف ويعجز عن معرفة ما يحيط به.

قلب (المعتصم) النابض يُوشِك على التوقف ويدور في عقله كيف يخرج من هنا، ولكنه وجد (النعمان) يعاود كلامه وكأنه يقرأ أفكاره ويعلم ما بداخله:

- ستخرج.. لقد رأيت قلبك وعرفت أيّ نوعٍ من البشر أنت،

ستكون عكس أبيك، ستكون خادمًا ممتازًا لي، لا تخف
ستنال ما هو أكثر مما تحلم به من شاهٍ وجاهٍ ومالٍ، خُذ هذا
الكتاب، لا تخف لن أؤذيك.

مدّ (النعمان) يده فمد (المعتصم) يده المرتعشة لأخذ
الكتاب مرة أخرى فتكلم النعمان بصوت هادئ:

- سأرسل لك أتباعي يومًا بعد يومٍ ليعلموك أصوله لتنفرد
في كل شيء ولكن أحذرك.. لا تهرم ولا تفقد حماسك ولا
يصيبك الطمع وتخرج عن طوعي وترتقي وتظن أنك
بمساعدتك لي أنك ستكون صاحب فضل عليّ حتى لا تكون
نهايتك مثل أبيك، غدًا اذهب لبيت الصبي وردّد الصفحة
العاشرة من الكتاب ولا تخف، ثم اذبح دجاجة وصّغ دمها في
إناء صغير وانقع قماشة صغيرة بالدم وامسح بها وجه
الصبي وردّد مرة أخرى الصفحة العاشرة!

ابتسم (المعتصم) بمشاعر ممزوجة بين القلق والفرحة.. ثم
قال:

- أريد.. أريد فقط معرفة أين أنا وكيف جئت إلى ذلك
المكان؟

لم يجبه (النعمان) حتى اختفى أثره عن المكان، وجد (المعتصم) أن كل ما حوله ينهار ويتلاشى حتى ظن أن الأرض ستنشق وتبتلعه ثم عادت الظلمة مرة أخرى، ولكنها لم تستمر سوى بضع ثوانٍ».

بعد أن انتهى النعمان مما يحكيه فقد (المعتصم) وعيه لبضع دقائق، وحينما فتح عينيه وجد نفسه ملقى على الأرض، جسده في وسط الدائرة كان عارياً تماماً في خلاء المقابر وبجانبه بعض من الغربان السوداء تصدر النعيق المشؤوم، نهض بجسده وهو يتحسس وجهه وكتفه يسأل في نفسه «هل كان يحلم؟» وجد القطة التي قام بذبحها تمشي أمامه مفصولة الرأس، هرع من المشهد فارتدى ملابسه الداخلية وهو يركض ويعدو بسرعة في خوف شديد كاتمًا أنفاسه حاملاً على كتفه جلاببه الأبيض المتسخ. حتى وصل إلى البيت ودفع الباب وأغلقه وحينها رمى نفسه على الحصير، تنفس بصعوبة بالغة، كان يفكر فيما رآه وما سيحل به في المستقبل القريب، أنفاسه تتصاعد بصعوبة وهو متصبب عرقاً من خوفه الشديد حتى أغمض جفونه وراح في سبات عميق..

استفاق (المعتصم) على صوت أمه تناديه فكان يتلوى على

الحصير في كابوس مريد، سألته أمه بغرابة عن نومه على
الحصير بملابسه الداخلية فلم يجبها بل ظلَّ يحدق في
أرجاء البيت عدسة عيناه غير مستقرة، تكلمت أمه قائلة
وهي تراقبه:

- أرى في عينيك ما رأيته في والدك منذ سنين.

نظر إليها في خشية من أمره وقام من مجلسه دون
حديث، أخذ كتابه من الأرض وظلت قدماه تسيران به إلى
غرفته، شعر بالبرد وأصابته رعشة حلت بكل حواسه حتى
سمع اهتزاز بعض الأواني في غرفته ظلَّت تطارده المخاوف،
أخذ نفسًا عميقًا حينما شعر بخطوات آتية من خلفه فاستدار
بجسده ببطءٍ شديدٍ، لم يرَ أي مخلوق في الغرفة ولكنه سمع
أنينًا جعل شعر جسده يطقطق لا يعلم من أين مصدره، ظلَّ
يبحث بعينه وهو في ثبات لا حراك حتى التقت عيناه
بالمرأة فوجد شخصًا يشبهه إلى حدِّ كبيرٍ، ولكن بشرته تشبه
معدن القصدير، ينظر إليه بنظرات مخيفة ثم سمع هاجسًا
يقول «أن لا ترتعد فرائصك عند ظهور سيدك الأكبر وأتباعه
في أي صورة مفزعة»، تقدّم للمرأة بقدميه وقبل اقترابه
طرق باب غرفته، كانت أمه والتي تحدثت في عجلة من
أمرها قائلة:

- عمدة القرية في انتظارك بالخارج.

قالتها ثم أغلقت الباب فعاد يبصره ينظر للمرأة مرة أخرى. استعجب حينما لم ير سوى انعكاسه فقط واستدار بجسده إلى خزانة ملابسه وسحب جلبابًا أسود اللون وعمة بيضاء ثم ارتداهما ودسّ الكتاب في أحد جيوبه، خرج من الباب ليقابل العمدة (فضل) والذي قابله بترحيب شديد قائلاً:

- صباح الخير على شيخنا المبارك.

ابتسم (المعتصم) وجلس:

- صباح الخير يا سيد فضل.

ظلّ العمدة يبجل (المعتصم) ويحكي في قصص الأولياء وأنه دائم لزيارتهم ليأخذ ببركتهم لتسير أمور دنياه ثم بعدها فتح موضوع ابنه فوجد الترحيب والبشارة من (المعتصم) والذي قال له:

- لا تخف يا سيد فضل سأشفيه بأمره.

ثم انهالت منه الوعود والتبشيرات على (المعتصم) إذا
عالج ولده سيكون له مقام رفيع في البلدة وسيبني له بيتًا
جديدًا، جميع طلباته سثنقذ في لحظة أمره.

طلب (المعتصم) من السيد (فضل) أن يذهبوا لزيارة بيته
وولده، فمشوا خارج البيت سائرين إلى بيت العمدة، وعند
وصولهم الدار طرقت العمدة بابه فسقطت لمبة الجاز المعلقة
على الباب فنظر (المعتصم) في تعجب فابتسم العمدة قائلاً:

- ربما قد يكونون خائفين منك يا مولانا.

فتحت الخادمة باب البيت فدخل العمدة وتبعه (المعتصم)،
جلس على الأريكة وذهب العمدة ليحضر ابنه، كان طفلاً
صغيرًا لم يتجاوز العشرة أعوام على حسب ما قاله والده،
ولكنه شاحب الوجه وهزيل البنية، الهالات السوداء تحت
جفونه وشعره متساقط كرجل أصلع في الخمسين من عمره.

جلس الطفل بجانب أبيه بعيدًا عن (المعتصم) مما دفعه أن
يقوم من مجلسه ليقترب منه، ثم أمر العمدة بأن يحضر
دجاجة لم تبيض من قبل فذهب وأصبح (المعتصم) والطفل
الصغير بمفردهم، كان السكون يعم أجواء الغرفة فنظر الطفل

فجأة إلى (المعتصم) بعين حادة قائلاً بصوت غليظ:

- هل تظن أنك قادرٌ على إخراجي من جسده، أم تظن أن اتباعك المحيطين بك لهم سلطان عليّ؟

خفق قلب (المعتصم) ولم يجبه واكتفى بالابتسام. تحرّك الطفل نحوه ببطء وهو ينظر إليه بثبات مُصدراً عزيماً من فمه كالحشرات الطائرة، حارب (المعتصم) خوفه فهذه أول مرة له يرى طفلاً به مس شيطاني، ولكنه يعلم أن الشياطين والمرّدة يستشعرون الخوف الذي يقطن فيه.

لم تمر أكثر من دقيقتين حتى دخل العمدة (فضل) ويشاهد ولده في تلك الحالة وهو بيده الدجاجة الصغيرة وإناء فارغ وسكين، ظلّ واقفاً حتى نادى عليه (المعتصم).

- أحضّر لي ما طلبته منك يا سيد فضل، وأخرج.

خرج العمدة وهو ينظر لابنه بخوفٍ، أمسك (المعتصم) الدجاجة ونحرها ثم وضع يده في جيوبه وأخرج المجلد خاصته، فتح على الصفحة العاشرة بترقّب، ظلّ يقرأ منه ويردّد وهو يراقب بطرف عينه الطفل الصغير:

- بسم الملك الدائم القديم الذي ما سطع نورًا إلا وجهة
الأكوان وأمدّها بك سلطان.. وأسرعت بالإجابة والبرهان،
أقسم على معار الأرواح الرواحانية باسم الذي تكلم به ملك
الأرواح هورين هورين.. اشمخ اشمخ العالي بحق كل برخ
وبحق طشطيش وباكور آل قادوس العزيز.. أسألك باسمك
الخفي المظلم أنت تمكّني منه.. باسمك يا زمجيل زمجيل
زمجيل.

ظلاً يردّد تلك الطلاسم وهو يشاهد ذراعي الطفل تتشنجان
وظهرت بوجهه العروق الدموية، وكادت تنفجر، ظلّ يصرخ،
مما أخاف العمدة الذي كان يتصنت بأذنه خلف الجدار، بدأ
الطفل يتلوى وينازع شرًا ساكنًا ومغموسًا بداخله
و(المعتصم) يرتل بتعازيم غريبة:

- باسمك أنت وحدك أزل الغمة، بإذنك أنت وحدك أحرقه
أنت من أمرت ففعلت.. أنت من أمرت وأنا أطعت.

ظلاً الطفل يعوي كالذئب مما أدخل الفرع والرهبنة في
نفوس من في البيت، تبدّلت عيناه لشديدة السواد وهو
ويقول بصوت متقطع:

- إنه سيدكم أنتم ليس بسيدي! إذا حُرقت لن تهدأ نار قبيلتي وسيأخذون بثأري.

نظر (المعتصم) بقلق للطفل الذي أصدر صرخة جعلت أهل القرية يفزعون ويخرجون من بيوتهم حينما قال (المعتصم) آخر جملة في المجلد!

- أمرك باسم عظيمك.. باسم النعمان!

سقط الطفل مغشيًا عليه، ففتتح (المعتصم) الباب فهول العمدة على ابنه وهو يحاول أن يفيقه فقام (المعتصم) من مكانه حاملاً الإناء وبه الدم، قطع قطعة قماشية بالية ثم أغمسها بإناء الدم وظلَّ يردد فيها نفس العزائم في الصفحة العاشرة ثم وضعها على وجه الطفل ثلاث مرات، فاستفاق الطفل من غفلته وفتح عينيه ببطء شديد يحدق في أركان البيت ثم تكلم وهو ناظر إلى أبيه قائلاً:

- ماذا حدث يا أبي، ومن هذا الرجل؟

لمعت عينا العمدة من شدة فرحه وظل يتحسس جسد ولده الذي عاد لطبيعته، ثم نظر (المعتصم) وهو يميل

بجسده عليه ممسكاً بيده يقبلها وهو يبجل فيه ويمدحه
ببالغ السعادة، تركه (المعتصم) يقبل يده بينما لم تكن أفعال
العمدة وكلامه عن بركاته مصب تركيزه بل كان شاردًا فيما
هو آتٍ له من خيرٍ وشمعة جيدة.

خرج (المعتصم) من البيت على زغاريد وتهليل الإناث
التي تقطن فيه ويتبعه (العمدة) ومعه حشد من الناس فتكلم
العمد مرددًا بأعلى صوته قائلاً:

- يوم الجمعة سنذبح العجول احتفالاً بشفاء ابني على يد
مولاي وشيخنا المبارك المعتصم.

شعر (المعتصم) بثقة بالغة في سيده، وأنه الآن يمتلك قوة
قادرة لا يقوى عليها أحد.

انتشر الخبر في القرية كالنار في الهشيم وبدأت الناس
تحكي وتتحاكى عن بركات شيخهم الجديد ويختلقون
قصصًا لم تحدث من الأساس عنه وعن كراماته كعادة البشر
في المبالغة والتبجيل، كان (المعتصم) في بيته تكوي له أمه
جلبابه الخاصة بمناسبة عقيقة العمدة وهي تنظر له بنظرة
حزينة غير مهتمة بما جدَّ له في حياته، يجلس (عصام)

بجانب أخيه الأكبر (المعتصم) قائلاً:

- أحقًا يا أخي ما سمعته عنك في المدرسة؟

فرك (المعتصم) ورقة تبغه وهو يقول:

- وماذا يقولون يا عصام؟

اعتدل (عصام) في مجلسه وتنهد فرحًا وهو يتكلم بشغف
لما سيقوله له:

- يقولون يا أخي إنك حافظ لكتاب الله وتعالج الناس من
المس والحسد، وإنك تحرق المرّة والجان بأمر الله ويقولون
أيضًا إنك ورثت بركتك تلك عن أبي والذي كان من أولياء
الله الصالحين، أتعلم يا أخي لم اشعر بهذا الاحترام من
المدرسين والتلاميذ من قبل لقد شعرت بالفخر وأنا أقول
إنك أخي.

ظل يضحك (المعتصم) وهو يمسح بيده على شعر أخيه
حتى التقت عيناه مع أمه ثم رآها تنظر بنظرة خائبة لأخيه
الصغير وهي تهز برأسها في أسي، أشعل سيجارته وهو يأمر

أخاه أن يذهب إلى غرفته، ذهب للغرفة وحدث (المعتصم) لأمه باستياء وهو يخرج الدخان من فمه ثم قال:

- ماذا بك يا أماه؟ أراك حزينة.

- نعم .. نعم يا ولدي حزينة لما قد أصابك.

قالتها أمه غير ناظرة إليه فضحك (المعتصم) متهكمًا لقولها:

- أصابني! وما الذي أصابني؟ أنا الآن في أفضل حال.. ليس في القرية دار إلا وقد ذكر به اسمي؟

تركت أمه ما تفعله وذهبت إليه وجلست:

- وهذا ما يخيفني... أنا اشاهد أحداثًا قد رأيتها من قبل في أبيك، اعدل عن هذا يا ولدي، رأيت؟ لقد تبدل حال القرية في عشية وضحاها، لقد أصبحت من الأولياء بعدما كنت من الملعونين!

ضحك (المعتصم) وهو ينظر في عين أمه وقال:

- نعم يا أماه أنتِ معكِ كل الحق، ولكنني أعذرك فأنا للمرة
المئة أقول لكِ أنا لست أبي، أنا مختلف وأعلم أن كل هؤلاء
الناس متقلبون فلا أعتد عليهم ولا أستمد قوتي منهم، إنهم
فقط أداة لما أريده وأريد أن أخبرك بأمر كنت أخفيه
للمستقبل عندما يملأ اسمي في كافة أرجاء القرية سنرحل
منها! إن الساحر يا أمي ليس له مكان فالأرض كلها ملكه،
أريدك أن تبتسمي لما هو آت، وواعد مني أنك لن تري سوى
الخير.

(الفصل السادس)

ظل (المعتصم) يراقب هيئته في المرأة ومرتديًا عباةته البيضاء وملحفته الرمادية الموضوعة فوق كتفه، يرفع أحد حاجبيه الثقيلة بفخر وهو يبتسم يضبط لحيته ثم مسح جبينه العريض ووضع نوعًا من العطور ودلف متجهًا إلى بيت العمدة، لم يسر سوى بضعة أميال فرأى أمام بصره العديد من الرجال والنساء ينظرون إليه ويهمسون في آذان بعضهم البعض حتى وصل إلى منزل العمدة فضل الذي استقبله وهو يقبل يديه وذلك جعل الناس يعاودون ما فعله العمدة، يهرولون إليه ليأخذوا من بركاته مبتهلين واكتفى (المعتصم) بالابتسام وسط الحشد الكبير حتى سار بقدميه إلى الأمام ليجلس وسط المكان المخصص له في منتصف الفناء الواسع، جلس بجانبه العمدة وكشف الغطاء عن الصواني التي أمامه ليجد اللحوم والفاكهة وأطعمة لم يزر المعتصم مثلها من قبل جعلت لعبه يسيل من رائحتها الزكية، طلب العمدة من الجموع كشف الصواني وإطعام بطونهم الجائعة وحينما انتهوا بدأ يقص عليهم ما فعله شيخه المبروك وكيف عالج ابنه فلذة كبده مما جعل جميع الحاضرين يكبرون وهم يمدحون مولاهم الجديد إلا رجلاً

أشيب، كان يعلم من هو (المعتصم) أشد العلم فهو مربّيه وهو الذي استضافه في مرائبه إنه الشيخ (علاء) والذي رفض خطبته من ابنته لماضيه الخبيث الفاسد، كان يحدّق في (المعتصم) بغرابة ويسمع قول هذا وذاك وهو يبتسم ويمصمص شفّتيه حتى تكلم وقال باستخفاف وسط الجموع:

- ومنذ متى ظهرت لك تلك الكرامات يا ابن الساحر؟

عم السكوت والصمت في أجواء فناء منزل العمدة، ينظر الرجال له بتعجب وذهول يكتنف إدراكهم... فكيف يجرؤ على الاستخفاف بالشيخ المبروك الجديد الذي عالج ابن العمدة الممسوس بشهادتهم جميعًا؟ وكيف يجرؤ على مناداته بابن الساحر؟ وكأنهم لم ينادوه من قبل بهذا اللقب فتكلم رجل من الجموع:

- ما الذي تقوله على مولانا يا شيخ علاء؟

قهقه العجوز وهو ينهض من مقامه مستندًا على عصا خشبية بالية قائلاً:

- مولاكم؟ أصبح حقًا مولاكم؟ هذا ابن ساحرًا وعالج ولد العمدة بسحر الشيطان ليس بالقرآن وذكره، وأنتم تعلمون أشدَّ العلم بماضيه والذي كشفته لكم حينما طلب خطبة ابنتي.. أفيقوا من تلك الغفلة يا رجال الله، أفيقوا ولا تتبعوا خطوات ذلك الشيطان.

قال كلامه وانسحب من الجلسه غير مودع لما فيها مما جعل الرجال يتزعزعون في أفكارهم وهم يتهامسون فيما بينهم ويراقبهم (المعتصم) بعينه وهو يحدق فيهم مستشيطًا بغضب مريب لما قاله ذلك الرجل العجوز حتى تكلم العمدة قائلاً:

- إنه رجل مجذوب حَرَف، والله لو لم يغادر لطرده لما قاله على شيخنا.

ظلَّ يعتذر عما بدرَ من ذلك الرجل ولكن ذلك لم يشفِ غليله، ترك (المعتصم) مقامه وانسحب خارج المجلس في سخط وغضب حتى غادر إلى بيته.

دفع باب داره بقدمه ثم دخل إلى غرفته ليخلوا بنفسه في غرفته المظلمة وبدأ بقراءة مجلده في خلوته، ظل يقرأ

تعليمات جديدة وبعد ذلك أوقد النار ثم وضع بخورًا ذا رائحة طيبة وبدأ يتمتم بعزيمة موضعه في كتابه وطلاسم ويسأل سيده وعظيمه، ظلّ يردد كلماته غير المفهومة حتى هاجت النار واهتزت أرضية الغرفة والمصابيح المعلقة كالتي أصابها زلزال خارق، بدأ بخور النار المنبعث منها يتكشل على أشكال أطياف غريبة الشكل ونافذة غرفته ظلت تتخبط بقوة حتى ظهر له شخصٌ يشبهه تمامًا مع اختلاف وحيد في عينيه الحمراءوين ظلّ يُصدر فحيحًا خلفه فالتفّ برأسه وهو يأخذ نفسًا عميقًا قائلاً:

- لقد أهانني ذلك الرجل يا سيدي... أريد منك الخدمة.

اقترب شبيهه وهو ينظر بعينيه الحمراءوين إلى (المعتصم):

- وماذا تريد مني، أنا في خدمتك بأمر من سيدي؟

اعتدل (المعتصم) من مجلسه وهو ينحني برأسه ثم طلب منه أن يشفي غليله، نظر له شبيهه وهو يقول:

- اذهب له الآن..

اختفى شبيهه وهاجت النار مرة أخرى، خرج (المعتصم) من غرفته فوجد أمه جالسة على الحصير مرتعشة وجسدها يرتجف بغرابة فاقترب منها وجلس بجانبها وقائلاً:

- ماذا بك يا أمي؟

ترتعد بخوفٍ شديدٍ وانعقد لسانها عن الكلام وتنظر له بخوف حتى وضع (المعتصم) يده عليها فابتعدت مهرولة وهي قائلة:

- أنا لا أعلم من أنت؟

رفع (المعتصم) حاجبيه غير مدرك لما تقوله أمه فسألها بلطف:

- كيف هذا أنا ولدك! لماذا خائفة مني هكذا لماذا تبعدين عني؟

كانت تحمق به بخوفٍ شديدٍ وهي تقول:

- لقد رأيتك وأنت تدخل البيت ورأيتك في غرفتك.. كنت

سأجلب لك الطعام، ولكن غرفتك كانت مغلقة فرجعت
وبعدها رأيتك تدخل إلى الحمام فناديتك فنظرت إلي
وعيناك تلمعان. وقع المصباح مني وأنا أشهق ورجعت
للخلف، والآن... الآن أنت تخرج من غرفتك، قلت لك! هذه
الأحداث تكرر معي مرة أخرى، كنت أراها في زمن بعيد مع
أبيك، أرجوك يا ولدي اعدل عما تفعل.. لا تسكن بيتنا
الشياطين!

لم يرد (المعتصم) على أمه بل اقترب منها ووضع يده على
رأسها في صدره، ظلت تبكي وهي تترجاه أن يعدل عما
يفعله وتلوم نفسها على إعطائها له ذلك المجلد والخاتم، أما
هو ظلَّ صامتًا غير منصت لما تقوله، وبعد أن ارتاحت
وهدأت قام من مجلسه دون حديث ذاهبًا إلى بيت الشيخ
(علاء).

خرج من منزله وهو يشعر بخطوات تتبعه وتمشي من
خلفه، حاول أن يسترق النظر بعينه حتى وجد بعض
الخيالات الضخمة تكبر أمامه وبعض القطط تمشي بجواره،
وقف ينظر لهم في خشية حتى سمع صوتًا آتيًا من الفراغ

- اذهب إليه وافعل ما شئت فيه! فإنهم جنودك وأتباعك،
وتذكر أنك رسولي على هذه الأرض وإهانتك من إهانتني.

علمه (المعتصم) من صوته فهو (النعمان) فابتسم وتقدم
إلى بيت الشيخ العجوز، أطرق الباب ففتح باب الدار ابنته
(سارة) حب حياته نظرتها لم تتغير، دق قلبه ولكنه تكلم
بحدة.

- أين أبوك؟

تكلمت بغلظة فحُبُّها الكبير تلاشي، حينما ظنت أنه خدعها
ولم يخبرها بأمره وحكايته.

- وما الذي تريده من أبي يا ابن العرافين؟

- جئت أطلب يدك مجدداً من أبيك، ولكن هذه المرة
بطريقة مختلفة.

ضحكت باستخفاف وهي تهينه قائلة:

- وهل تظن أنني أريدك حقًا؟ هل تظن أن ما يحدث في القرية قد يؤثر في معتقداتي بك؟

قاطع كلامها أبوها وهو يتسند على عصاه ويتقدم ناحية الباب قائلاً:

- من خلف باب الدار يا سارة؟

- إنه ابن العراف يا أبي العزيز وستندهش حقًا من طلبه.

دفع (المعتصم) الباب بساقه فشهقت سارة وأغلق الباب وهو يتحدث:

- إنه أنا يا عمي العزيز.

قالها (المعتصم) وهو يتمشي في ردهة منزله:

- إذا لم تخرج من منزلي في الحال سأطلب ابن خالها وهو شرطيٌّ وخطيبها في نفس الوقت.

ابتسم (المعتصم) وهو يفرك لحيته ويقترّب من الشيخ

الذي ينظر إليه بامتعاض حتى اقترب من أذنه ومال وهو يتكلم بهمس:

- كان..تقصد كان خطيب ابنتك فابنتك لي.

صاح به الشيخ العجوز قائلاً:

- اخرج من داري يا أحمق القرية يا لعين.

رمقه (المعتصم) بنظرة حادة فأحس الشيخ بريبة من تلك النظرة، رأى في عينه السواد الدامس وظل يستعيد بالله، أما (المعتصم) كان يرتل ويتمتم.

هز (المعتصم) رأسه بشكلٍ دوّار، ظلَّ يُردّد وصرخَ صرخةً عاليةً، ارتعدت (سارة) وهي تقف بعيدًا في زاوية البيت، أما الشيخ العجوز فسحبَ من قدميه ودفع على أحد الجدران، كان الشيخ غيرَ مدركٍ لما يحدث، يحملق بعدسة عينيه ويرى مجموعة من القطط السوداء أمام عينيه، وقُوّة خفية ترفع ذراعيه كالمصلوب ولا يقدر على الحراك، ظلَّ يبكي ويصرخ وهو يقول:

- ما هذا، أعوذ بالله، أعوذ بالله.

كلما يستعيد يضرب بيد غليظة فيصرخ، استمر الضرب به و(سارة) تشاهد أباه يصرخ، كانت تنوح كالأطفال من هول المشهد، رأت قِطْطًا سوداء اللون تقترب منها بعين حمراء مضيئة فصرخت بأعلى صوتها، اقترب (المعتصم) من الشيخ العجوز وهو يضحك متحدثًا:

- لقد أسأت معاملتي اليوم وسط الحاضرين، عقابي لك سيكون وخيمًا.. أنا لست بابن الساحر ولا ابن للشياطين بل أنا الساحر، أنا الشيطان وأنا نهايتك.

ثم ضغط (المعتصم) على يده فازدادت صرخات الشيخ وسقط أرضًا، هرولت (سارة) إلى قدمه تقبلها وهي طالبة الرحمة فنظر (المعتصم) لها وقد رق قلبه لوضعيتها فابتسم لها ثم قال بصوت عبوث:

- إرضاء لك سأتركه مشلولًا بدلًا مما قد خططت له من إنهاء حياته ليكون عبرة على من سيتجرأ ويتلفظ بكلام على مولاه.

ثم نظر للعجوز بغضب مكملًا:

- صدقني أنا لا أريد خطبة ابنتك! فأنا أعلم كم الكره الذي تحمله داخل جوفها تجاهي الآن.. أخبرني والدك ياسارة أنه من ضمن أسباب كثيرة جعلتك تري هذا الرجل الذي يقطن أمامك الآن، وتذكرني أنا لم أبدأ بأذيتته.. بل هو من فعل بي ذلك! ونصيحتي لك ألا تخبري أحدًا عما شاهدت الآن. لأن حينها لن ألتفت لهواجس قلبي؟

أومات (سارة) برأسها في ارتعاد، وخرج (المعتصم) من الدار وهي تهزول لأبيها مسرعة كالذي فقد وعيه من هول ما رآه.

خرج (المعتصم) وهو ينظر إلى السماء فوجد أطيافًا سوداء تبحر من فوقه خارجين من منزل الشيخ (علاء)، بدأ يقهقه وهو يرفع ذراعه شاعرًا بعظمته وقوته التي وهبها له شيطانه ومولاه اللعين، ظلّ يراقب القطط السوداء والتي تصطف من حوله، شعر أنه اكتسب قوة خارقة وأن أحلامه ستتحقق مع هذا (النعمان) وأن كل ماضيه سيتبدل ويندثر وسيصنع مستقبلًا ينسيه آلامه وخرقة انتقامه، كانت تراقبه (سارة) وهي تغلق باب دارها، تراقب ضحكاته وتلك الأعين

المضيئة التي تحيط به فشعرت برعشة تجتاح جسدها فأغلقت بابها بدون إصدار صوتٍ.

بدأت الناس تعلم ما حلّ بالشيخ (علاء) عازمين أنها بسبب ما فعله مع (المعتصم) المبروك، انتشرت الأخبار عن بركاته أكثر وقوته وأصبحت الناس تتوافد إلى بيته طالبين أغراضهم متوسلين إليه، أما أمه أصابها الحزن والوهن فقد كانت تشعر بقلب أمومتها أن ابنها يسلك درب أبيه ولن يسلم منه.

خصص (المعتصم) وقت الصباح للضيوف أصحاب النفوس الضيعة يأتون إليه في غرفته الخاصة لاستقبالهم ويسمع شكواهم وعِلتهم بأذان صاغية وتأتيه الحلول من شياطينه الملعونة على تفاوت.

صار الليل لا يطاق في بيت (المعصم).. بيت كئيب ومظلم بالنسبة لأهله، يجلس طيلة العشية داخل غرفة مظلمة تملأها الشموع بها حاملة خشبية وضعت فيها كُتب بحث عنها وعدة أنواع من البخور وموقد للنيران يتوسط الغرفة بجانبه وسادتان يجلس على إحداهما وهو يقرأ في كتابه أساليب جديدة للتفريق والعداوة والبغضاء ويتعلم

عدة طرق للتسخير، إذا أراد خيرًا ومحبة وضع في النيران نوعًا من البخور ذي رائحة خبيثة وإذا أراد شرًا وضع نوعًا من البخور ذا رائحة طيبة، ثم يبدأ في تلاوة عزمته الشركية في أوج الليل ويدعو أتباعه من الجان وسؤالهم بعظيمهم بعدما ينتهي من تلاوته يظهر أمامه شبح على هيئة كلب أسود أو أي هيئة أخرى فيأمره (المعتصم) بما يريد وأحيانًا لا يظهر له أي شيء بل يسمع صوتًا آتيًا إليه من أركان الغرفة وترتفع النيران، وأحيانًا أخرى لا يسمع أي شيء وإنما يعقد على أثر من آثار الشخص المطلوب سحره مثل شعرة أو قطعة من ثوبه ويأمر الجني بما يريد، فإذا أوى الجني تنفيذ طلباته استعان بعزيمة أخرى بها توسل وتبجيل لكبيرهم ويحضر طيرًا بأوصاف معينة حسب طلب الجني، وغالبًا ما تكون سوداء اللون، يذبحها ويرميها في الخرابات التي يسكن فيها أعوانه ثم يعود إلى بيته ويقول عزمته مرة أخرى ليأمر كبيرهم ما يريد.

لم يمر يوم إلا على هذا المنوال، لا جديد فيها سوى اختلاف وجوه أصحاب العِلل والذين لا يعلمون عن أمره هذا شيئًا، تمنى (المعتصم) أن يتطور في مهاراته فأراد أن يتعلم الطريقة السفلية وهي المميّزة لديه فصاحبها يكون لديه مجموعة من عشائر الجن تخدمه لأنه أعظم السحرة كفرًا،

ولكنها تشتت بتقديم قربان من دمه وهو ما يجعله واقفًا
عن أمنياته ولم يخط نحوها خطوة واحدة.

جلس (المعتصم) في إحدى ليالي الشتاء في غرفته
المظلمة مُشعلًا النار الهائجة من حوله منغمسًا في خلوته،
طرق عليه الباب فالتف برأسه ببطء في تعجب سأل في
نفسه من «سيأتي له في ذلك الوقت» ظنّ أن شياطينه
تداعبه ولكن الطّرق عاد مرة أخرى فنهض من خلوته وتقدم
للردهة ليفتح الباب، وجد في انتظاره خلف الباب شيخًا
عجوزًا نحيلًا يرتدي ثيابًا سوداء عليها عباءة أشد سوادًا، له
عينان نافذتان بقوة كما لو أنهما تخترقان روح من أمامها،
وشارب رفيع طويل ولحيته تكاد تبلغ بطنه، وعلى رأسه
عمامة ضخمة يستند على عصا خشبية، نظر إليه (المعتصم)
باستنكار:

- ألا تعلم أن الوقت تأخر يا رجل؟

ابتسم الشيخ العجوز وهو يقول:

- لن آخذ من وقتك الكثير ولن أزعجك، ولكني سأزعج شياطينك!

نظر له (المعتصم) بغلظة وهو مستشيط وقال:

- مَنْ أنت وماذا تريد؟

فتحدث الشيخ مبتسمًا كعادته:

- يا ابن رجب لا أريد أن نكمل حوارنا على الباب فأنا ضيفك وقادم إليك من بعيد.

استغرب (المعتصم) كلامَ الشيخ! كيف علمَ اسم أبيه وماذا يريدُ منه في هذا الوقت المتأخر، ولكنه دعاه للدخول، أثناء دخول الشيخ ازدادت الرياح مما جعلت النار المشتعلة تطفأ، لاحظ (المعتصم) شيئًا غريبًا لم يعتد عليه فبدأ عليه الخوف والقلق عندما رآه أحد شياطينه ينظر إلى هذا الشيخ باستشادة وغل شديد، ظل يتمتم (المعتصم) في سره بكلماتٍ تجلب أتباعه له ولكنهم لم يقتربوا من مجلس الشيخ، ظل واقفًا بعيدًا عن مجلسه مستعجبًا حتى ناداه الشيخ قائلاً:

- لن يتخطوا قدرهم يا المعتصم، اقترب يا بني دعك منهم
فأنا أريدك وحدك.

اقترب (المعتصم) منه وهو يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى
وبداخله ألف سؤال، مرت ثوانٍ من الصمت والخوف يبيت
في قلب (المعتصم) بينما ينظر إليه الشيخ مبتسمًا قائلاً:

- إنهم لا ينفعون ولا يضرّون إلا بإذنه، وأنت تأمر من مطاع
لا من أمر.

حاول جاهدًا يجمع شتات ما تبقى منه قائلاً:

- ومن أنت؟ وما مصدر قوتك!!

نظر الشيخ إلى لخاتم الذي يتوسط إصبع (المعتصم)
وابتسم ثم أغمض الشيخ عينيه وأمسك بمسبحته وهو يهز
رأسه قائلاً وبصوت عالٍ:

- الله.. الله.. مصدر قوتي هو الله.

ظلّ يردّد الشيخ اسم الجلالة مما جعل الأبواب تهتز، ومع

كل ذكر لاسم الله أصبحت شياطين المنزل تتهاوى، بدأت
قطط المنزل تصدر أصواتًا غريبة لم يعتد عليها (المعتصم)
فبدأ يتلفت برأسه يمينًا ويسارًا، والشيخ ينظر إليه مبتسًا
قائلًا:

- لقد كنت مثلك، وما فعلته وسوف تفعله لم يتعدّ نقطة في
بحر ذنوبي، عشت أيامًا مريرة فكنت شيطان مثلهم، ولكن
صدقني شيطان الإنس أقوى فهو يغوي بني آدم من فعل
إبليس. ذاع صيتي في القرى والمدن وسميت بالطواف رجل
الكرامات.. وفي يوم بدأت أحارب من رجل ذي شأن من
رجال الدين، ظلّ يهاجم أفكارى على منابر المساجد فشعرت
بتأثر الناس وتزعزت هيبتى وسط العوام فعزمت على
سحره.. ولكن من هنا تبدّل كل شيء يتغير في حياتي.

شعر (المعتصم) من كلام ذلك الرجل بنوع من الفضول،
فسأله وهو غير مبالي لشياطينه من حوله والتي تريد أن
ينهي حوارهم مع ذلك الرجل وقال متعجبًا:

- وما الذي غير مسارك؟

- عندما ذهبت لخلوتي، وبدأت ترديد عزيمتي ظهر لي

كيان وقال لي: «دعك من هذا الرجل» تساءلت لم؟ أدركت من كلامه أنه رجلٌ من الصالحين ولا يمكن آذيته، كيف.. كيف لا يمكن آذيته؟ بدأت أفكاري تتنصل واحدة تلو الأخرى، حتى قابلت ذلك الرجل وواجهته ورميت بتعزيماتي عليه! لكن دون فائدة فأنا من ارتعدت فرائصي من نظرة ثبات ذلك الرجل وابتسامته والنور الذي يشع من حوله حتى تكلم بصوت رخيم وقال: «إنهم لا ينفعون ولا يضرّون إلا بأذنه، وأنت تأمر من مطاع لا من أمرٍ» كلماته هزت قلبي ورجعت لبيتي وقررت التوبة..

صمت الشيخ وهو يتذكر ما مرَّ به وارتسمت ملامح الحزن والأسى على وجهه مع ابتسامته المعتادة، مستكملًا:

- توبة خسرت من أجلها أعز ما أملك زوجتي وأولادي! لقد عانوا كثيرًا فماتوا تضحية بسبب قرار توبتي.. ماتوا بفعل الشياطين لكي أرجع إليهم ولكن العكس زاد ثباتي لرجوعي إلى الله، لم يتركوني فكانوا معي في كل مكان يريدون أخافتي وفزعي وأنا أدعو الله حتى استجاب لي وأصبحت حينما يرونني يركضون بعيدًا عني، مثلما ترى الآن... اترك يا ولدي ذلك الخاتم وأحرق مجلدك فأنا أعرفهم جيدًا..

بدأت الأسئلة بداخل (المعتصم) «هل هذا الشيخ كاذب
والنعمان يختبره باتفاقه مع شياطينه، أم صادق وبالفعل
أتباع النعمان لم يقوا عليه، قطع شروده وهو يختبر ذاك
الشيخ بسؤاله:

- وإن لم أفعل ذلك، ماذا ستفعل؟

ابتسم الشيخ وهو يهز رأسه ولم يجبه وغادر على الفور
و(المعتصم) يحدق به.. ظلّ يفكر بكلام هذا الشيخ حتى
سمع صوت خطوات تقترب منه فرفع بعينه ليرى شيطان
في مرمى بصره منه ويقول:

- سيدي أرسلني إليك، ما رأيك بكلام ذلك الرجل وهل
صدقته وأثر فيك قوله.

اعتدل (المعتصم) في مقعده وهو يتصبب عرقاً ثم قال
بلعثة:

- لا.. لا بالطبع لم أصدقته، ولكن كيف يعلم بكوني ساحراً
وكيف يعلم قصّتي؟

- أنت تكذب، أنا أعلم ما يدور بداخلك، ولكن هذا اختبار صغير لك أن هذا الشيخ يدعى الشيخ سليمان الطواف، وسمي بالطواف لأنه يطوف الأرض باحث عمّن مثلك بقدره مضاعفة لقدرتك يعلم كل شيء وما يدور في نفسك وهذه آخر فرصة لك أن تشك، سيدي لديه القدرة أن يرقيك ويجعلك في منصب آخر، ويحسن لك الأتباع، ولكن أنت في البداية، الطريق طويل عليك أن تثبت نفسك لتأخذ ثقة أكبر من سيدي النعمان.

أنساه هذا الكلام وزاد من طمع (المعتصم) فأجيب عليه بعين لامة:

- كيف؟ فأنا أنفذ عملي.

- لن أنكر هذا، ولكن يجب أن ندخل كل البيوت، يجب أن تكون أنت وأتباعنا في كل مكان ليأتوا لك بالأخبار السارة قبل السيئة وحينها لم يبق بيت في القرية يتحرك إلا بإذنك.

ترك (المعتصم) اتباعه لكنه عاد يفكر في قول الشيخ والذي كان يصدقه بقلبه، لكنه كان يطمح في المناصب الجديدة يريد أن يستولي على القرى المجاورة ويزداد سلطته وجاهه.

(الفصل السابع)

جلست (نفسية) تفكر في مستقبل ولدها (عصام) الصغير حينما تأكدت أن (المعتصم) لن يعدل عن طريقه، ظلت تفوص في بحر أفكارها ماذا ستفعل وإلى أين ستتخذ سبيلًا آخر غير ذلك المكان اللعين، فالشياطين تحيط بهم من جميع الاتجاهات، وأثناء تفكيرها دخل عليها (عصام) يرتعد وهو يقول:

- أمي أنا أخاف أن أنام وحيدًا هذه الليلة، توجد خيالات داخل غرفتي.

حضنته (نفسية) وهي تخبره أن ينام في غرفتها هذه الليلة، وتأكدت أنها يجب عليها المغادرة فهمت في الصباح الباكر على حمل أغراضها من ذلك البيت فأقبل عليها المعتصم وقال مستعجبًا:

- إلى أين تذهبين يا أمي!

نظرت له أمه في يأس وقالت:

- لن أعيش معك في بيتٍ واحدٍ.. أخوك يكبر ولا أريد أن يرى نهاية أخيه أمام عينيه!

استشاط غضب (المعتصم) وقال:

- كفى عن هذا!! لماذا تريدان حياة الفقر؟ أنا أفعل كل هذا لأجلك وأجل أخي!

- حياة الفقر أفضل من خسارة الآخرة يا ولدي.. أنت تفعل كل هذا لأجلك أنت وحدك! وإذا كنت حقًا تريد راحتي كف عما تفعله!

مسح (المعتصم) وجهه وشعره في ضيق وهو يقول:

- أماه إذا كنت لا تريدان رؤيتي سأنتقل من البيت هذا وسأترك هنا مع أخي، ولكن لن أدعك تتركين القرية، أفهمت.

تركها (المعتصم) وأغلق الباب في ضيق وذهب إلى العمدة يطلب منه البيت الجديد والذي وعده به وطلب منه أن

يجعل حراسة دائمه على بيت أمه ولم يخبره الأسباب
وبالفعل عندما ذهب وجد العمدة في انتظاره ومعه مفاتيح
البيت الجديد ووفر حراسة على بيت أمه لعدم مغادرتها
القرية

انتقل إلى بيته الجديد وفي ظرف أيام معدودة، أصبح هذا
البيت أشهر من بيت العمدة ذاته فأصبح جميع من في القرية
يذهبون بيت (المعتصم) لأخذ البركات والدعوات، فسُمعته
قد ذاع صيتها حدود تلك القرية وانتشرت في قري أخرى
وازدادت الحكايات والأقاويل عن كرامات (المعتصم) وظل
يتردد على بيت أمه من حين لآخر ليطمئن عليها.

ظلت (نفسية) غير راضية عن حياتها وحياة طفلها الصغير
(عصام) ولا على تلك الحراسة التي تتواجد خارج منزلهم
في الظهر والعشية، كانت تعلم أن المشكلة أصبحت في
المنزل فقد كثرت به الشياطين ولن تنتهي بخروج
(المعتصم) فقط، فكلما أرادت أن تقرأ من كتاب الله، دخل
الخوف قلبها وقلب صغيرها وأصبحت تحدث أمور في
البيت أسوأ مما مضى، جعلت (عصام) ينطوي على نفسه ولا

يريد الخروج من غرفة أمه ولا يود الذهاب إلى مدرسته، فنظرت إلى ولدها بحسرة وأسى، وأثناء تفكيرها طرق أحدهم على بابها، وحينما فتحت وجدت ولدها (المعتصم) فدخل وقال:

- اعذريني يا أماه، لقد انشغلت تلك الفترة.

اقتربت منه (نفيسة) وهي تعرض عليه ما كانت تفكر فيه وقالت:

- لقد وافقت على عدم سفري وسأظل هنا، ولكن لي شروط..!

- وما هي شروطك يا أماه؟

قالها بنغمة رقيقة فردت الأخيرة قائلة:

- أخوك عصام يذهب إلى خالته فلا أريده أن يرى أخاه يقتل أمام عينيه!

ضحك (المعتصم) وهو يمسح بيده على لحيته واقترب

منها وقال:

- مَنْ الذي يجرؤ على قتلي يا أماه؟ الناس في هذه القرية كالعرائس أحرکها بخيوطي وأنت تعلمين هذا يا أماه ولكن دعيني أسالك!.. سترسلي أخي إلى خالتي؟.. خالتي التي طردتنا منذ سنين، أليس كذلك؟

- أنت تعلم جيدًا أنها كانت مجبورة على فعل ذلك.. ولكن بعد وفاة زوجها الوضع بالتأكيد قد تغيّر.

- عصام عاقل بما يكفي فاتركيه يقرر! عصام.. اخرج من غرفتك فأنا هنا!

ظلم ينادي (المعتصم) على (عصام) الذي كان جالس في غرفته ولا يريد الاستجابة.. فاستدار إليها قائلاً:

- أين أخي يا أماه..

- في غرفته.

- ولم لا يجيب ندائي؟

- لا أعلم.

قالتها دون النظر إليه! فابتسم (المعتصم) ونظر إليها:

- ولكني أعلم! أنا أحفظ تعابير وجهك يا أماه وأعلم جيدًا أنك تريدين الرحيل عني وأنتِ قسيتي قلب أخي الصغير عليّ، ولكني أحبك وأحبه أيضًا، افعلي ما شئت، أرسليه لعله يجد مصيرًا أفضل مني ولكن لن أسمح يومًا أن تتركيني أنت مهما كلفني الأمر.

أخذت (نفيسة) طفلها (عصام) في حضنها هذه الليلة وأخبرته أنه يجب عليه المغادرة إلى خالته فقد تواصلت معها على ذهابه إليها فاستعجب (عصام) من طلبها فقالت:

- يجب عليك المغادرة يا عصام، يجب أن تعيش حياة أفضل فخالتك ستأتي لتأخذك، لا تعود هنا مرة أخرى.

- لم يا أمي؟

- لقد أخفيت عنك سرًا... أخوك لم يكن مبروكًا كما تعتقد، أخوك يسير على خطى والدك بالشياطين وهذه قصة طويلة

وستعرفها وحدك في يومٍ ما، عليك أن تعرف أنني لا أقدر على بعدك لكن هذا أفضل لك يا ولدي.

بكت أمه في هذه اللحظة وهي تحتضنه...

بعد مرور عدة سنوات قضاها (المعتصم) في توزيع كراماته على أهل القرية ليس حبًا فيهم، ولكن ليحكم سيطرة شيطانه عليهم وعلى بيوتهم..

لا أمر في القرية يصدر إلا بمشورته وموافقته، يقترب من الفقراء قبل الأغنياء لا يريد تكرار ما فعله أبوه، فالفقراء هم حطب الاشتعال ويومًا عن يوم تزيد سلطته ولكنه لم ينس انتقامه من الناس، حينما يأتي الناس لصنع الأعمال والأحجية لمن يريدون لم يجعلهم يغادرون إلا بعدما يعقد لهم سحرًا آخر لهم دون علمهم، ومن يأتي له يومًا يعتاد على المجيء طيلة حياته، الشياطين دخلت كل بيوت القرية بفضله، حينما يأتي رجل ليحكي معضلته يتفاجأ أن (المعتصم) هو من يرويها قبله فيظل يردد «حي حي يا شيخنا!!»

يظنون أنه لديه قدرة بسبب علمه وأنه من الأولياء، بل ووصل الأمر في بعض الأحيان أن يفتيهم في أمور دينهم ويحرف في معتقداتهم الكثير والكثير، وبنى لهم ضريحًا بأمر من سيده أطلق عليه (ضريح النعمان) وأوهمهم إنه كان من أتباع الله المخلصين وجعل له يومًا خاصًا يحتفلون به ويتضرعون إليه فأصبحت عادة عند القرية ويوم النعمان تذبح الذبائح بيد (المعتصم) ويأكل منها الفقراء.

تغلغل شر (المعتصم) ونفوذه في القرية وانقطعت أخبار أخيه (عصام) والذي عكف عن زيارة تلك القرية مرة أخرى حتى مرضت أمه، وأصبح يقيم في منزلها طيلة الوقت ليعتني بها.

حالة (نفيسة) الصحية تدهورت سريعًا، وأدرك (المعتصم) أن فراق أمه قد شارف على المجيء بعدما عجزوا جميع الحكماء أن يعرفوا علَّتُها، وما صعب عليه ذلك الأمر هو حديثها معه حينما نادى عليه وطلبت منه أن يجلس بجوارها، كانت راقدة على فراشها الأخير، وأخذت تتحدث بصوت مبحوح:

- أظن أن وقتي قد حان، لن يحبك أحدٌ مثلما أحببتك يا

بني.. وهذه آخر نصيحة إليك، اعدل عن هذا الطريق لعلّ الله يغفر لك. أريد أن أراك يا ولدي مرة أخرى في حياة لا موت فيها!

انهمرت قطرة من دموع (المعتصم) على خديه، لم تنزل دموعه من آخر جرح قد مسّ قلبه حينما فقد (سارة) حبه الأول والأخير، صاح في أمه شاردًا حينما بدأت تزداد عليها سكرات الموت وقال:

- لن تموتي يا نفيسة! أفهمتِ هذا؟

بدأ (المعتصم) يردّد في تعازيمه اعتقادًا منه أن اتباعه قادرة على إبقاء أمه على قيد الحياة.. وحينما فاضت روحها إلى بارئها، ظلّ يلعن أتباعه غير مصدقٍ فقدان أمّه، يصرخ ويصرخ حتى جلس على ركبتيه وأمسك بمعصم أمه وقال:

- أمي!.. أمي استيقظي؟ لا أريد أن أصبح وحيدًا.. سأكف عمًا أفعل، ولكن انهضي من هذا الفراش!.. أرجوووك!..

كان يهذي بكلامه غير متقبلٍ للقدر المكتوب، وشعر بعد موتها أن كل ذرّة حُبّ وحنان في قلبه قد تلاشت للتوّ، كان

يفكر بجدية بكلام أمه وهو يأخذ واجب العزاء الذي كان مليئًا بكل أهل القرية من الأعيان والفقراء، فقد ماتت أم شيخهم.

جاء (عصام) إلى القرية لمراسم دفن والدته التي كانت تتمنى أن تراه حينما صار أكبر عمرًا وتبدّلت ملامح الطفولة بأخرى يافعة وحينما رآه (المعتصم) هرول إليه ليحضنه، ولكن أخاه عامله بفتور ورفض حضنه، مما جعله يستشيط في الغضب فطرد كل أفكاره الماضية ونسي كلام أمه وتذكّر حقه المدفون لأخيه (عصام) ولكنه أخفى ذلك في قلبه احترامًا لموت أمه.

ظلّ (عصام) متعجبًا كيف أخوه وصل إلى تلك المكانة في القرية؟، لقد قالت له أمه إن أخاه يتبع للشيطان مما دفعته عن الهروب من تلك القرية وقصت له ما يفعله، وكانت تدعي في صلاتها بهدايته وتبكي لليل ونهار على ما وصل إليه، كيف الناس في تلك القرية يبجلونه وينادونه بالمبروك والشيخ، ألم ينكشف سرّه حتى الآن؟، كان يتابع الناس وهي تُقبل يد أخيه وهو يهز رأسه باستعجاب حتى انتهت مراسم العزاء وصعدوا إلى البيت فوجد أخاه جالسًا على الأريكة المطرزة فأخذ (عصام) بحقيبته ليغادر فناداه (المعتصم)

قائلاً:

- إلى أين ذاهب يا عصام، الوقت متأخر نام الليلة وغادر صباحًا.

التف إليه قائلاً وهو يضحك:

- أنام في بيت الكافر؟ أنام مع الشياطين؟

ابتسم (المعتصم) لأخيه قائلاً:

- هذا ما تعلمته في تعليمك عن قطع صلة الرحم عند خالتك.

- كلا والله، لقد تعلمت ما لم تعلمه لك شياطينك يا عدو الله.

نهض (المعتصم) من الأريكة وبدأ يمشي بقدميه نحو أخيه وهو يتحدث قائلاً:

- لقد كنت طفلاً صغيراً وأنا من ربيتك بعد حرق أبيك الساحر المعتوه، قصة لا تعلم عنها شيئاً ولم يخبرك بها أحد

خوفًا على مشاعرك.. قصة أنا الذي أدفع ثمنها إلى الآن
لكوني الأخ الأكبر ولكني تجاوزتها يا أخي وتحديث كل هذا
وأصبحت كما تراني الآن.. أتعلم أنا لم أمنعك حينما طلبت
مني أمك مغادرتك للقريبة، فأنت منذ صغرك وولادتك لم
تحمل أيِّ هموم بل كل شيء جاء لك على طبق من فضة
وبسببي أنا، بسببي أنا أكلت وشربت وأنا أعاني جعلت الناس
يحترمونك منذ صغرك، لا ألومك على شيء فأنت سافرت
وتركت أمك وحيدة تعاني من عدم رؤياك تعاني من المرض،
أنت لم تتحاسب يومًا على إثم واحد من ماضيينا القديم.

ضحك (عصام) بتهكم ثم اقترب من أخيه الأكبر وجهًا
لوجه قائلاً:

- جلساتك مع الشيطان جعلتك ماهرًا في الخداع حقًا،
جعلتك تقول العبارات المؤثرة وتنعت أباك بالسب والشتائم،
وأنت أنت تدفع كل أخطاء الماضي، لكن صدقني أنا لم أنس
أنك قُمت بتربيته حقًا، ولكني لا أشكر بل أنعتك وأستغفر
الله وأشكره أيضًا، أستغفره لما دخل في أحشائي من مالٍ
حرام وأشكره أنه هداني أن أبعد عن نجاستك أنت
وشياطينك يا شيخهم المبروك.

أوماً (المعتصم) برأسه ثم قال:

- إن ما تقوله في حقي فأنا أسامحك فيه يا أخي، ولكن ما تقوله في حقهم فأنا أراهم خلفك ينظرون إليك بشراً مهيباً ولن أفعل أي شيء.

ضحك (عصام) بتهكّم مرةً أخرى وأخذ حقيبته ليغادر وحينما أقدم إلى الباب ليدلف خارج البيت لم يفتح. حاول مرةً أخرى وأخرى، ولكنه ظلّ عالقاً لا يفتح، نظر (عصام) لأخيه فوجده مطأطئ الرأس قائلاً:

- افتح الباب يا المعتصم.

فضحك (المعتصم) ضحكة مخيفة وهو يقول:

- ومن قال لك إنني أغلقته من الأساس بل هم، وأنت من قلت في بداية الحديث إنه بيتهم وأنا ضيف.

- إذا أوامرهم بفتح الباب.

نظر له (المعتصم) بأعين بيضاء تماماً مما أصاب (عصام)

- أنا قلت لك ما قلته في حقي فأنا سامحتك فيه، ولكن ما قلته في حقهم لا أملك قراري فيه وكما قلت لك يا أخي أنت لم تحاسب يوماً على إثم واحد من ماضينا القديم، وأظن أنه جاء الميعاد.

وجد (المعتصم) هذه الفرصة وقد جاءت على طبق من ذهب، فهو يريد عشائر من الجان والمقابل دم أخيه المتنمر، أطفئت أنوار البيت وظلّ (عصام) يرتعد ويسمع صوت صكّ أسنانه وهو يردّد البسمة بينما (المعتصم) يرتل عزائمه بصوت عالٍ:

- باسمك أنت وحدك سيدي باسم جلالك باسم كيرير كيرير.. سيدي النعمان صاحب هذا المقام سيد الأزمان وخادم الهيكل الكبير والعهد القديم، أسألك باسم العلي.. وشوفال شوفال، أنت تخدمني فيما أريد وسأكون عبدك المطيع.

حينما انتهى من تلك الكلمات، اشتعلت النار على الطاولة وبدأت النوافذ تتخبط وكأن الرياح عتية بالخارج، يسمع

(عصام) همسات في أذنيه بكلمات شيطانية ويشم رائحة كريهة، بدأ الصراخ يدب في كل أركان البيت.

يترجى (عصام) أخاه أن يتركه، ولكن (المعصم) مستمر في غمغمته، بدأ الدم ينزف من فم وأذن (عصام) وهو يصرخ ويصيح، في تلك اللحظة أغشي عليه للحظات وبعدها وجد نفسه مقيّدًا في الأرض المرسوم بها نجمة خماسية وحولها الشموع التي أضاءت من تلقاء نفسها، ما زال الدم يسيل من (عصام) بغزارة وأخوه يجول من حوله داخل الدائرة وهو يضحك وينادي بأسماء شيطانية:

- بحق آهيا شراهيا، بحق بيهرتايل فلتأتوا مسرعين بحق تورال تورال تورال.. مسجان اظهروا لي وحققوا مرادي.

سمع خطوات تقترب من الدائرة وحينما رآه (المعصم) ارتسمت البسمة على وجهه، اقترب ذلك الشيطان من (عصام) وقال:

- أنا آخر وجه تراه في دنياك.

تحدّث (عصام) وهو يكحكح دمًا بينما ينظر في عين

النعمان البيضاء بخوف شديد:

- من أنت؟

- أنا النعمان، أنا سيد الأحياء والأموات، أنا بوابة الأزمان وأنت الآن جسدك محرابًا لقوتي الخالدة، جسدك ملكي.. ملكي وحدي.

نظر (عصام) إليه في خوف:

- ماذا تريد مني؟

- أريدك أنت!.. إننا أقوام لا تظهر لأحد إلا عندما تريد ذلك.

حينها نظر (عصام) بعينه ليرى الكثير من الشياطين ينظرون إليه بثباتٍ. ارتجف جسد (عصام) من هول المنظر:

- بحقك لا أريد أن أموت!

ضحك النعمان واقترب منه وقال:

- ابن آدم خائف.. لاتخف، أمامك خياران، إما أن تصبح مثل أخيك وتدرك أنه لم يختَر غير الصواب وسأعطيك كنوز الدنيا والخلود وتكون عبدًا لي.. وإلا...

أسرع (عصام) بالإجابة:

- سأكون.. لا أريد الموت! سأكون..

ابتسم النعمان وقال له:

- ابن آدم مثله مثل الكثيرين اخترتني أنا ولكن ابن آدم لم يحسن دومًا الاختيار ولم يعلم البرهان فأنا لا أريده، وقلت لك إنني آخر وجه تراه في دنياك ولم يصدقني.

ظل (عصام) يتقيأ الدم أكثر وهو يشير لأخيه، ولكن دون فائدة حتى سمع صوت الموت وفارقت روحه عن جسده، حمل (المعتصم) جسد أخيه بعين جامدة ويقول:

- إن مالي وبيتي وعائلي وذريتي لك يا سيدي، أرجو أن تكون راضيًا عني، وأن دماءه تعطيني مرادي.

نظر (النعمان) إليه قائلاً:

- إن روحه الخبيثة هي من أهلكته، ليس أنت وليس أنا، هو من أساء الاختيار ولكن أخبرني وما مرادك؟

- أريد يا سيدي عشيرة تخدمني وتكون تحت سُلطة أمري.

قالها (المعتصم) وهو مطأطئ الرأس فاقترب (النعمان) منه قائلاً:

- لك هذا... فقد استوفيت الشرط، وفي الصباح الباكر سيتفاجأ الناس بحريق هذا البيت وستترك لهم جثة أخيك ليتأكد الناس أنك حُرقت، ستذهب إلى القرية التي قُتل فيها أبوك، القرية هنا لم تُعد في حاجة لك.

اتسعت حدقة (المعتصم) حينما أُمِرَ بالخروج من القرية فنار الانتقام ظلت فيه طيلة هذه السنوات فقد كان يببب يتضرع ويبتهل من أجل سؤاله هذا في عزلته وخلوته ووافق (النعمان) وسرد له ما حدث في السنوات الماضية والتي غاب فيها عن قرية الحسنية ودله على مستعار يسمي

به نفسه في القرية (فريد) وسرد له تفاصيل هذا الاسم وقصته. دلف من الباب للخارج، فاشتعلت النيران ونظر ورائه فوجد الكثير من أتباعه يحيطون بالبيت، أخذ نفسًا عميقًا ولم يحرك ساكنًا ثم غادر المكان. وفي الصباح تفاجأ أهل القرية ببيت الشيخ قد حرق ووجدوه جثة محروقة داخل البيت فظنوا أنها جثة شيخهم مما جعلهم يشعرون بالأسى والحزن وجعلوا بيته ضريحًا كبيرًا سمي بضريح (الشيخ المعتصم).

(الفصل الثامن)

وصل (المعتصم) إلى القرية التي شهدت طفولته ومعها موت أبيه محروقًا قرية الحسنية، لم يرَ تغييرًا كبيرًا، فالترعتين على جانب السهل الأخضر كما هو يوجد بها الحقول للخضار والقمح وبساتين الفاكهة المختلفة، ظل يتأمل القرية بسيارته ويتأمل البيوت القديمة والقرية لمدرسته، يتذكر المنحدر الذي عاش فيه طفولته حتى وصل إلى بيته القديم الذي لم يعد بيته، نزل من سيارته مرتديًا عباءة رمادية وفوق رأسه عمامة حمراء، تغير حاله كثير فقد زاد وزنه واختفت عظام وجهه البارزة وقصر شاربه وخفف لحيته ظلّ يتأمله الفقراء فهم لم يعتادوا على زيارة الأغنياء لتلك القرية، ظلوا يحدقون بأعينهم في سيارة (المعتصم) حديثة السنة وهو ينظر إليهم بابتسام وقد اختفت كل ملامح وجهه الحادة. اقترب منه بعض فقراء القرية للسؤال فوضع يده في جيوبه وظل يعطيهم واحدًا تلو الآخر وبعدما انتهى نادى على واحد منهم وقال له:

- مَنْ يسكن هذا الدار يا رجل.

شاور (المعتصم) على بيته القديم فتحدث رجل فقير
قائلًا:

- شيخ القرية.. الشيخ محفوظ

ابتسم (المعتصم) وودع الرجل ذاهبًا إلى البيت وأثناء
سيره أخذ يتمتم بكلامه مع شياطينه فعلم منهم أنه ابن
الشيخ (سعيد الضرير) الذي طردهم من البيت في الماضي،
طرق على باب المنزل ففتح له شاب يافع ففتح له وقال:

- صباح الخير من تريد.

- أريد الشيخ محفوظ.

- أبي في صلاة الظهر تفضل وانتظره.

دخل (المعتصم) البيت ووجده بأنه لم يتغير عن آخر مرة
تركه فيها باستثناء بعض الإضافات الجديدة، وذلك جعل نار
الانتقام تملأ قلبه، وقف فجأة حينما تذكر أباه وهو يعطيه
كتابًا وخاتمًا ويقول في هذا المكان الذي يدبُّ بقدمه عليه
«إذا جاءت نهايتي يا ولدي وأظنها قريبة لا تصدق ما قيل

عَنِّي، وأنا لست بملاك ولا شيطان، ولكني أريد أن أقول لك نصيحة، الناس يا ولدي في بلدتنا هذه يصنعون نار الشر ويَنفَخون فيها حتى تعلو وترتفع لتحرقهم وبعد ذلك يحاولون إخمادها، ولكن ليس كل مرة ستخمد النيران.. لقد أعطيتك هذا الخاتم المجيد وتركت لك هذا المجلد فإذا كان حظك غير حظي فستكون من المُبشرين»، عاد لرشده على صوت الصبي يقول:

- تفضل يا سيدي بالدخول لمَ تقف هنا!

قدمَ (المعتصم) لغرفة الضيوف وطلب قهوة وهو يحدق بعينه في أرجاء البيت حتى طرَّق الباب الشيخ (محفوظ) وأقبل عليه في الغرفة، كان رجلاً خفيفَ اللحية وببشرة سمراء يظهر عليه الكدح في الحقول كان (المعتصم) يتفحصه بعينه فهو يعلمه منذ صغره ولم ينسَ آخر جملة وردت منه قبل مقتل أبيه (أظن أن هذا الصبي ممسوس) ظلت تتردد تلك الجملة في أذنه حتى ابتسم (محفوظ) ابتسامة خفيفة حينما رآه وقال:

- أهلاً بك لقد نورت المنزل.

فتحدث المعتصم بابتسامة مماثلة:

- إنه بنورك يا شيخ محفوظ.

- اعذرني يا سيدي إنه جهل مني بالتأكيد فأنا لا أعرف اسمك.

فضحك (المعتصم) وهو يقول:

- أبدًا ليس جهلاً فأنا لم أُرر بلدي من قبل، أمي دائماً تحكي لي عنها وتحكي لي عن كُتّاب قرية الحسنية والشيخ سعيد، كانت تحبه فهو من حفظها كتاب الله فلهذا السبب جئت لكم أوائل الناس.

ابتسم (محفوظ) لكلام (المعتصم):

- رحمه الله وجعله في ميزان حسناته وجعل مأواه الجنة بأمر الله، وبارك الله لك فمن الواضح أنهم أحسنوا تربيتك يا بني، ولكن اعذرني مَن هي أمك ومِن أي عائلة أنت؟

- أنا جدي يدعى عبد الحميد السباعي وأنا اسمي فريد.

تهلل وجه الشيخ (محفوظ) عند سماع هذا الاسم ونهض من مجلسه وهو يحضن (المعتصم) قائلاً بصوت عالٍ:

- يا ألف مرحب بحفيد صاحب أبي ورفيق دربه، الشيخ عبد الحميد السباعي لقد كان أبي الثاني وحينما غادر البلدة هو وبنته لم نرهما مرة أخرى، أصاب قلبي الحزن.. يا ألف مرحب بك والله زدنا نورًا.

تنهد (المعتصم) وكأنه انزاح من قلبه حمل ثقيل ثم تكلم:

- إنه نورك يا شيخنا، ولكن اعذرني لقد قالت لي أمي إن بيتكم على ضفاف الترعة، وحينما ذهبت وجدت أناسًا آخرين فهل تركتوا البيت؟

- نعم في السابق كنا نسكن على ضفاف الترعة، ولكن حدثت يا ابني الكثير من الأمور التي لا أحب أن أتذكرها حتى نقلنا إلى هذا البيت، دَعَكَ من هذا وسأجهز لك غرفة للراحة أريد أن أتناقش وأتسامر معك في المساء.

أخذ الشيخ (محفوظ) ضيفه وجهز له الغرفة. كانت غرفة ابنه الأوسط (وليد) ثم ودع (المعتصم) وتركه وأغلق الباب،

ظَلَّ (المعتصم) يتجول في الغرفة ونار انتقامه تزيد كلما تقدمت قدماه بخطوات في الغرفة، يتأمل بعينيه ذكريات طفولته ثم ابتسم حينما رأى سُترة معلقة على باب الغرفة كانت تخص (وليد) ابن الشيخ، تقدّم إليها وسحبها بيده وهو يتفحصها بعناية فرجع بخطواته وجلس على أحد الكراسي بالغرفة وهو ممسك بالسترة، ظلَّ يتمتم بعزيماته على تلك السترة.

ظلَّ يردّد ويردّد حتى انتهى.. كان (وليد) في ذلك الوقت يحصد في أرض أبيه الزراعية وحينما كان يضرب بفأسه الأرض شعر بألم مفاجئ يكاد يمزق معدته، خرَّ على الأرض وهو يصرخ متألّمًا حتى سمعه الفلاحون فاجتمعوا من حوله وحملوه إلى داره، وهو فاقد الوعي من شدة ألمه.

راقب (المعتصم) عن كثب ما يحدث إلى (وليد) وأخذ يحمله مع الناس وهو يخبئ نظراته الخبيثة لتعابير (محفوظ) المرتعدة خوفًا على ابنه.. وحينما خرج الناس خرج معهم (المعتصم) ليترك عائلتهم تنوح على ما أصاب ولدهم، وشرع في البحث عن بيتٍ يأويه، فوجد بيتًا في وسط القرية واشتراه من مالكة بمبلغ بخس.

أصبح يجول في القرية ويوهم الناس بأنه حفيد (عبد الحميد السباعي) وخذعت أهل القرية بتلك الرواية إلا رجلاً واحدًا كان يدعى (صبري) لم يصدق تلك الرواية المترددة بين الناس وظل يكذبها حتى علم (المعتصم) أنه يريد أن يدمر ما هو مقبل عليه.. ذهب إليه في أوج الليل ودقَّ على بابه، وعندما فتح (صبري) الباب وجد رجلاً بجلباب أسود وحاملًا على كتفه وشاحًا شديد البياض، ولحيته بها بعض الشعيرات البيضاء وعينان لونهما أسود قاتم تكادان تنظران إليه بتحديق غريب وفم مرتسم بابتسامة مصطنعة ويعلوه شارب سميك فارتعد (صبري) عندما طلب (المعتصم) منه الدخول.

تبدّل حال الشيخ (محفوظ) في أيام معدودة بأفعال (المعتصم) الذي ظلّ في مأواه الجديد يلقي تعازيمه في خلوته على ولده المسكين فأصبح (وليد) على تلك الحالة لبضعة أيام يتلوى من معدته، عجز الأطباء عن معرفة العلة التي حلت به وحرص (المعتصم) على زيارة بيت الشيخ (محفوظ) على فترات، وفي ليلة ممطرة طرق (المعتصم) على باب الشيخ ففتح له:

- مرحبًا بك يا فريد.

- مرحبًا يا شيخ محفوظ.

أدخله الشيخ وأمر زوجته بإحضار براد من الشاي الساخن. وحينما جلس (المعتصم) سأله عن حالة ابنه (وليد) فتنهد الشيخ بآلم وحسرة والخيبة ظاهرة على وجهه:

- لا أعلم ما به، عجز الحكماء عن أمره والحال بدأ يضيق بطريقة مفاجئة وكثرة المشاكل بدون أي أسباب، صرفت الكثير من المال في ظرف أيام يا فريد ولكنني كنت أدخر مبلغًا للظروف الطارئة، سأذهب به إلى القاهرة لعلاج والدي.

- ستفرج بأمره.

- ونعم بالله، اعذرني يا فريد فلقد أنستني الهموم سؤالي عليك، ولكنني علمت أنك اشتريت بيتًا في وسط القرية.

- لا عذر عليك يا شيخنا الجليل، نعم لقد اشتريت بيتًا في وسط القرية حتى لا أكون عبئًا على أحد، ولكنني كنت أود أن أشتري بيت جدي عبد الحميد السباعي، ولكنهم يقولون إنه

اشتراه رجل يدعى (فؤاد الكيال) وجعله منحلاً.

مصمص الشيخ (محفوظ) شفتيه وهو يهز رأسه بضيق
قائلاً:

- إن القرية بها عائلتان من الأعيان هم عائلة نصار والتي
تستولي على ثلث الأراضي الزراعية بالقرية وعائلة الكيال
وهي تمتلك الثلثين الآخرين بالإضافة إلى العمودية التي لا
تخرج منهم أبداً، وبينهم عداوة وبغضاء ودم منذ عقود
بعيدة وهم من يتحكمون بأهل القرية وإشغال الناس
وأجورهم بأبخس الأسعار.

نظر له (المعتصم) لبرهة ثم سأله:

- ولم الناس راضون عن تلك الأفعال يا شيخ محفوظ؟ لم
لا يتحدثون؟

ضحك الشيخ باستهزاء لما قاله (المعتصم) ثم تحدث:

- يتحدثون!! الناس يا بني هنا عرائس خشبية يحركونها كما
يريدون لا أمل فيهم، فهم يبحثون عن قوت يومهم وهذا

همهم الدائم فالرفاهية وإرجاع الحقوق يكون منعدماً وهم يلعبون على هذا الوتر.

قطع كلام الشيخ صوت صراخ ابنه (وليد) الذي جعله يركض مبتعداً إلى غرفة ولده ويتبعه (المعتصم)، كان (وليد) يتلوى على فراشة وهو يتكلم بصوت غريب على مسامع أبيه، نظر الشيخ إلى (المعتصم) بدهشة وغموض ثم سأله:

- ما هذا الصوت الذي يخرج منه!

اقترب (المعتصم) من الفتى قائلاً كالشيطان:

- أظن يا شيخ أن ابنك قد سُحِرَ.

وقعت تلك الكلمة كالصاعقة على مسامع أذن الشيخ فقال متعجباً رافعاً حاجبه:

- سحراً! من يسحر ولدي؟ ومن أين علمت هذا؟!

- لقد درست في الأزهر يا شيخنا وأعلم تلك الأمور وعملت معالجاً روحانياً.

اقترب (المعتصم) أكثر ناحية الفتى ووضع يده على رأس (وليد) وهو يتمتم بكلام غير مفهوم في سرّه مما جعل الفتى ينتفض من سريره ويفتح عينيه ويدفع (المعتصم) بقوة بعيدًا، وقع (المعتصم) على الأرض وتحدّث الفتى بصوت فظّ.

- ابتعدوا من هنا وإلا أذيتكم.

تأكد الشيخ أن ما أصاب ولده ليس طبيعيًا، نظر (وليد) لوالده نظرة جعلت يد الشيخ ترتعد من تلقاء نفسها ويسكن في جوفه الرعب، نهض (المعتصم) من الأرض وأمر الشيخ (محفوظ) بالانصراف إذا كان ضعيف القلب لأن الشياطين تعلم ضعف القلوب ولكن الشيخ أصر على البقاء.

بدأ (المعتصم) يردد عزمته الشيطانية بصوت منخفض، ظل (المعتصم) يردد ليأمر شيطانه -والذي وضعه بسحره في جسد الشاب- أن ينصرف بأمره، كان الوضع مهيبًا على أعين الشيخ الذي ظل يحدق دون تصديق وتسمر حاله دون حراك وكأنما مقيد بخيوط وهمية وابنه يصرخ ويصرخ ودمعه أنهار تجري واللعب يسيل من شدقيه مع صراخه وعيناه تستديران بلهفته تستجديان أباه الذي يرتعد من هول

المنظر فولده يردد ويقول:

- إنهم حولي! إنهم يريدون أن يقتلوني!

فسارت في جسد (محفوظ) قشعريرة باردة وأحس أن الشعيرات على جسده قد انتصبت حينما أدرك أن ولده يرى أشياء لا يراها هو، تبدلت ملامح وجه ابنه لتصبح كهلاً عجوزاً ابتسامته وحدها كفيلاً لخروجه من تلك الغرفة فصرخ (المعتصم) في (محفوظ) وقال:

- اخرج حالاً يا شيخ.

ظَلَّ (المعتصم) مع (وليد) في الغرفة وهو يحدث ما يسكن جسده ويأمره بالخروج.

- أحسنت عملك! اخرج الآن وأطعني وألا أحرقتك بأمرى
فأنا مولاك!

تكلم الجنى على لسان (وليد) بصوت غليظ يشيب الرأس
قائلاً:

- لن أخرج وأنت لست مولاي! أنت بَشْرِي أحقق معنوه!

استشاط (المعتصم) من كلام ذلك الجنى فبدأ يرتل عزائمه والتي يبجل فيها ملوكه وأولياءه من كبارات الشياطين والمردة، فصرخ (وليد) صرخة يكاد يسمعها من يسكن في شرق القرية ثم فقد وعيه، خرج (المعتصم) وهو متصيب عرقاً فأقبل عليه الشيخ قائلاً:

- ماذا حدث لولدي؟

ابتسم (المعتصم) له وقال:

- حدث كل خير، اطمئن حينما يفيق لن يتذكر أي شيء وسيصبح بعافية أكثر مما قبل.. اطمئن يا شيخ محفوظ.

حملَ عباءته تحت كتفه ودلف من الباب والشيخ ينظر له بغرابة شديدة وحينما خرج هرول (محفوظ) لغرفة ولده ليتفقد حالته وهو يتساءل في نفسه! «ما سرّ هذا الرجل؟»

(الفصل التاسع)

(يجلس إبراهيم النصار) على كرسيه مرتديًا عباءته وملفوف حول رأسه عمامة تدل على هيئته، يسمع صوت رنين هاتفه المنزلي فيذهب إليه في كسلٍ شديدٍ ثم يردُّ قائلاً:

- أهلاً.

- أهلاً يا حاج إبراهيم.

- خير يا عماد لماذا تتصل في هذا الوقت؟

- حاج إبراهيم، أرجوك انزل القرية الآن توجد كارثة في الأراضى!

- كارثة!! تكلم يا عماد ماذا يجري؟؟.. تكلم.. عماد!!

أغلق الخط بعد جملة (عماد) وهو فردٌ من عائلة (نصار) ومسؤول عن الأراضى الزراعية والتي ورثها (إبراهيم) من

أبيه (اسماعيل النصار) والذي كان من أعيان القرية قبل وفاته ولم ينجب سوى (إبراهيم) فورث عن أبيه ثلثي الأراضي الزراعية في القرية، عاود الاتصال كثيرًا، ولكن باءت محاولاته بالفشل، وضع في حقيبته مجموعة من الملابس وأخذ سيارته وتحرك للقرية، لم يزر القرية منذ سنين وقد اتخذ القاهرة ملجأ له والآن يستعد لزيارت بلده على كارثة لا يعلم عنها شيئًا.

وصل للقرية وحينها وجد مجموعة من أهالي القرية مجتمعين حول البناية التي خصصها (إبراهيم) مجلس له في كل مرة أحب أن يتفقد أراضيه، اقترب منهم ليعرف ما الذي يحدث ولمّ مجتمعون بتلك الطريقة، الساعة كانت تشير إلى الرابعة بعد منتصف الليل، وحينما وصل أخذ يطوف بحدقتي عينيه حول أرضه ولكنه لاحظ أن الأشجار قد ذبلت جعل وجهه ترتسم عليه علامات الدهشة والحيرة لأن في هذا الوقت من السنة بالتحديد الأشجار تكون في أقصى درجات ازدهارها ونضرتها فكان المنظر غريبًا لعينيه، دخل الأرض وهو في تلك الحالة يتفقد أشجارها السوداء ويضرب كفيه حتى وجد ورقة بيضاء صغيرة معلقة على إحدى الأشجار ومكتوب بداخلها «هذا بداية عقابي لك يا ابن اسماعيل نصار» لم يوجد إمضاء في الورقة، سحب

(إبراهيم) الورقة وهو يقترب من الرجال الذين كانوا يقفون دون حديث، ولكنه قبل أن يرمي سلامه عليهم لاحظ أن فروع الشجر التي تقطن وراءهم مسودة تمامًا والثمر ذابل حتى أوراق الأشجار تحمل نفس اللون، يدور حول نفسه مستعجبًا لما يراه فالتفت للرجال وقال:

- مَنْ الذي يخدم في هذه الأرض؟

نظر لبعضهم البعض ثم تحدّث (عماد) بصوت هادئ وهو الذي أخبره في الهاتف عما يجري:

- إنه يدعى صبري عبد الوارث يا حاج إبراهيم.

- وأين هو يا عماد؟

عاود الرجال ما فعلوه في المرة الأولى وظلوا ينظرون لبعضهم مرة أخرى فتكلم رجلٌ آخر وقال:

- قلنا له يذهب، إن حالته يرثى لها، سيجن يا حاج إبراهيم فهو يخدم على أكبر أرض منذ عقدين من الزمن وعشرون فدان ليس بمسؤولية هينه، وما يحدث له ولأولاده الآن لا

يصدقه عقل فجعلناه يذهب إليهم وأخبرناه أننا سنرسل له
عندما تأتي لزيارة الأرض.

استشاط الغضب على وجه (إبراهيم) وهو يقول:

- كيف يذهب؟ ومن أعطى لكم الأوامر؟ أجيبوني ما الذي
حدث في الأرض؟

تكلم (عماد) بلسانٍ طَلِقٍ وقال:

- يا حاج إبراهيم نحن حقًا لا نعلم أي شيء، الأرض على
هذه الحالة منذ مدة ليست بقصيرة، الشجر والثمار حاله
تبدّل للعفن والسواد وأنا كنت أحاول الوصول إليك عبر
الهاتف ولكنك لا تجيب، وحال الأراضي المجاورة كذلك،
ولكن أراضينا لها النصيب الأكبر من الخراب أظنه وباء
وينتشر.

لم يجبه الحاج كما يلقَّبونه على الرغم من عدم زيارته لبيت
الله، ظلَّ يحدق بعينيه على الأرض وهو يعرض على شفتيه
والرجال من حوله يغادرون واحدًا تلو الآخر، صعد إلى أعلى
البناية ليطل على أرضه من الدور العلوي ومع الشروق الذي

قد حلَّ بعد نصف ساعة اتضح ما كان يحجبه الظلام، الأرض على مرمى بصره امتلأت بالسواد غير الواضح أوله من آخره وهو غير مدرك هل ثمة حريق هائل قد حدث والرجال تخفي الأمر أم ما قالوه حقيقة ولا أحد يعلم ما الذي حل بالأرض؟ بالمنطق هذه الأرض لم تحرق فلا يوجد أثر لأي رائحة دخان وقد كان تسبب الحريق كارثة مهولة، أوقف شروده صوت (عماد) صارخًا وهو يقول:

- يا حاج إبراهيم، أرجوك انزل من عندك وانظر ما الذي يحدث في المنحل.

نزل (إبراهيم) وهو يهرول ناحية المنحل، ارتدا كل منهم بذلة المنحل البيضاء والخوذة فوق رؤوسهم مسرعًا، لكن (إبراهيم) تفاجأ بمهاجمة النحل له فلم يكن النحل عدوانيًا والأغرب له أن النحل يتجمع في مجموعات ويهاجمه بدفعة واحدة ليس متفرقين مثل العادة، خرجا مهرولين وأغلق (إبراهيم) الباب على صوت طنين النحل العالي وهو يقول إلى (عماد):

- اصطحبني إلى منزل صبري خادم الأرض.

وصلوا إلى بيته الذي يبعد عن الأرض بحوالي اثنين كيلو، نزل (عماد) من السيارة وطرق باب البيت ففتح له (صبري) وعليه ملامح الفزع، كان رجلًا بالغ الطول ببشرة بيضاء وعينين بنيتين وأنف كبير وذقن غير مكتملة مرتديًا تقشيرة قماشية فتحدّث (عماد) قائلاً:

- الحاج في السيارة يا صبري ويريدك الآن.

اقشعزّ بدن (صبري) حينما نظر لسيارة الحاج (إبراهيم) وكأنه قد رأى جنياً، ظلّ على هذه الحالة مرتعشاً وهو واقف في مكانه حتى دفعه (عماد) إلى الأمام، كان وجهه متعرقاً مائلاً للزُرقة ولا يتكلم فأمره (إبراهيم) بالصعود للسيارة والركوب بجانبه واستقل (عماد) السيارة فتحدّث (إبراهيم) قائلاً:

- اذهب لنقطة الشرطة يا عماد.

أمسك (صبري) بيد الحاج وهو يقبّلها مسرعاً ويقول:

- لا تظلمني يا سيد إبراهيم أنا ليس لي أي ذنب.

أشعل (إبراهيم) تبغ سجائره وقال:

- أنا لا أهتم بالعواطف، المشكلة التي أنا بصددها الآن هي بسببك وأنت تعلم هذا، فتحدّث وقل لي ما الذي حدث بالتفاصيل وإلا ورحمة أبي والذي لا أقسم به كذبًا لأجعلك لا تسوى فلسًا في سوق الرجال وحقي الضائع في إهمالك لأرضي سيرجع سواء بالقانون أو بغيره، احك لي ما حدث بالتفاصيل.

أمر الحاج (إبراهيم) السائق أن يتوقف أمام النقطة وهو يهدد صبري والذي كان يبتلع ريقه بصعوبة بالغة والعرق يتساقط من جبينه وهو يتكلم متعلثمًا قائلاً:

- أنا لا أنوي اللف أو الدوران يا حاج وسأروي لك القصة من البداية ولكن عذني بـ...

قاطعه الحاج بوجه عبوس وهو يصرخ فيه:

- بدون وعود.. أسرع في الحديث وإلا...!

تنهد (صبري) وهو ينظر إلى (عماد) بحسرة ثم استرجع

منذ حوالي ستة أشهر تغيّر حال الناس في (قرية الحسنية) فأصبح كل مولود جديد لدى أي عائلة في قريتهم يموت قبل أن يتم يومه السابع، فظن الناس في البداية أنها حالة واحدة ولكن زادت الشكاوى واحدة تلو الأخرى فكثر التردد على العرافين والسحرة كما حال بلدتهم والغريب في الأمر أن الحالات زادت أكثر، وخاف الناس من إنجاب الأطفال حتى ظهر رجلٌ لم يكن (صبري) يعلمه، يقولون إنه حفيد (عبد الحميد السباعي) ويدعى (فريد) أمر الناس ببناء ضريح في منتصف القرية وسموه بأمره بيت النعمان. ظلت الناس تتردّد على هذا البيت لنيل البركات والكرامات خصوصًا النساء التي ستضع أطفالها عما قريب، والمعجزة الإلهية تدخلت واختفت العلة بعد بناء الضريح بشهر واحد، أصبحت الناس تتردّد أكثر وأكثر ليطلبوا حوائجهم من سيدهم النعمان وذات يومٍ كان (صبري) يحصد في الأرض الزراعية فجأة يقبل على رجل غريب فترك ما كان يفعله وذهب إليه وهو لا يعلم ما خطبه وماذا يريد، كان غريبًا.. يرتدي نظارة سوداء تكاد تخفي ملامح وجهه، فوجّه خطابه

له وقال:

- ماذا تريد يا رجل؟ وعن من تبحث؟

فأهدى إلى (صبري) سيجارة من علبته الخاصة وقال:

- ما رأيك يا صبري بعرض إذا أخبرتك به ستعيش ملكاً لسنوات طوال.

عجب من كلامه، كيف لهذا الرجل يعلم اسمه؟ لم يهتم كثيراً وقد ظن أنه قد يكون سأل عنه أحد الفلاحين، ولكنه بعد ذلك علم أنه لم يتكلم مع أحد في البلدة غيره ولم يره أحد في البلدة غيره وأكمل كلامه قبل أن ينطق بحرف واحد وقال:

- ما رأيك إذا ضاعفت المحصول الذي تجنيه ثلاث مرات؟

فنظر (صبري) له وقال:

- هذا مستحيل، هل أخبرك أحد أنني معتوه؟

لم يكمل (صبري) كلامه وإذ بالرجل الغريب يخرج من أحد جيوبه زجاجة بها سائل واقترب من شجرة الليمون وانحنى وسكب ما فيها على جدورها فركض (صبري) نحوه وهو يصرخ فيه ويقول:

- ماذا تفعل ي ارجل؟!

كان على وشك التعارك معه، ولكنه أنزل بيده من ياقة قميصه وهو يبتسم وقال:

- هذا المسك من ضريح النعمان وموعدا الأسبوع القادم يا صبري.

قالها مبتسمًا وهو يغادر.. ولكن الغريب أنه حدث ما قاله بالفعل ولم يكمل على ما تفوه به أسبوعًا وإذ بالشجرة تطرح ليمونًا أكثر! طار عقل (صبري) كنت سأجن وانتظرت حتى جاء في موعده وعند ظهوره ركض إليه وهو يريد معرفة ما الذي حدث، كان يضحك وهو يقول:

- صدقتني الآن أم لا؟ ستعيش ملك لسنين إذا وافقت.

- وما المقابل؟

- أنا لا أريد منك أي شيء، لا أريد سوى خدمتك..

أخذ يشرح له ماذا سيفعل بالأرض وفي حقيبة سيارته هذه المادة والتي يدعي أنها من ضريح (النعمان) الذي ذاع صيته في قريتهم، وقال إنه سيرش الأرض على ثلاث أيام وبعد أقل من أسبوعين سيكون مصير الأرض مثل شجرة الليمون والتي رآها (صبري) بعينه، وبالفعل وافق على فكرته.

اتفق كلٌّ من هما أن (صبري) يترك الأرض في منتصف الليل وهو الذي سيتولى عملية الرش حتى لا يلاحظ أي شخص من أصحاب الأراضي المجاورة، بدأت العملية لثلاث ليالٍ متصلة وفي آخر ليلة جاء لي وقال:

- انتظر يا صبري أسبوعين من الآن وحالك كله سيتبدل.

وبعد أسبوعين الأرض طرحت ضعفين ما كانت تنتج مع العلم أنه لم يكن موسم للحصاد غير لنوع أو اثنين، أصبحت الأرض على هذه الحالة وكل من في البلدة بدأ مستعجبًا أن أنواعًا من المحاصيل تطرح قبل أوانها فأصبحوا غير

مصدقين والتجار تأتي إلى (صبري) يوميًا لتأخذ المحصول بالسعر الذي ترضى له نفسه في وضعه وتحكم في أسعار السوق، ولكن سرعان ما انتشر خبر غريب بين العرافين والسحرة في البلدة أن كل من يأكل من محاصيل الحاج (إبراهيم) يصاب بالمس الشيطاني.. بدأ الناس يتوافدون على محاصيل أرضي الحاج (الكيال) عمدة البلدة.

ظلّ يضحك (صبري) في البداية من تلك الأقاويل حتى لاحظ شيئًا غريبًا في الأرض، حالها يتغير ويتبدل فالشجر يذبل وقد أصابه الهلاك مع أنه لم يقصّر في الري أو التسميد، لاحظ أن الأرض ترفض الماء ويومًا عن يوم الحال بدأ بالتدهور سريعًا والسواد انتشر وبدأ يعم في سائر الأرض، والأغرب أنه بدأ يسمع أصواتًا غريبة في الليل وتحركات لخيالات.. لا يعلم هل هي حيوانات أم شيء آخر لا أحب ذكرها.

حاول أن يصل إلى ذلك الرجل مرة أخرى، ولكن دون فائدة ولكنه ذات يوم رآه يدخل عند بيت العمدة (فواد الكيال)، تبدلت حياة (صبري) رأسًا على عقب وأصبح على وشك خسارة ولده الصغير فأقبل على زيارة ضريح (النعمان) وكراماته، فوجد الشيخ (فريد) وقال له:

- إن الذي حدث لولدك هو بسبب أكله لثمار المحصول.

فتأكد من أقوال القرية.. حتى أول أمس ذهب للأرض فوجدها على هذه الحالة وتواجدت تلك العبارة «هذا بداية عقابي لك يا ابن إسماعيل نصار» فخاف (صبري) على نفسه ولم يعد للأرض.

ظل يحكي (صبري) له ما حدث وحينما انتهى تنهد الحاج (إبراهيم) ونظر إليه وهو يقول:

- وهل كان ينقصك أي شيء لتوافق على تلك الفكرة؟
أطلبت شيئًا مني أو من عماد ولم يتوفر لك من قبل ولم تأخذه؟

فردّ (صبري) وهو يرتعش وأكمل كلامه:

- لا والله يا سيد إبراهيم ولكن الطمع أغواني وقلت في نفسي هذا خير أتى لم أرفضه؟ والرجل كان صادقًا معي من البداية، ولكن ليتني لم أوافق، الوضع تبدل سريعًا.

نهرة الحاج وقال بصوت عالٍ:

- انزل من السيارة، والزم بيتك لأنني سأستدعيك مرة أخرى وإذا هربت سترى مني ما لا تحمد عقباه أنت وأهل بيتك.

خرج (صبري) من السيارة وهو يقبّل يد الحاج واندفع بعيدًا نحو بيته تاركًا الحاج في حيرة من أمره، نظر (عماد) وهو مستعجب:

- لماذا تركته يذهب يا سيد إبراهيم؟

أشعل الحاج (إبراهيم) سيجارته وهو يأخذ نفسًا عميقًا منها ثم قال:

- لا أحتاجه الآن يا عماد ولكن أخبرني ما أمر ذلك الضريح ومن فريد ذاك؟

مط (عماد) شفّتيه وقال:

- صدقني يا سيدي لا أعلم، أنا لا أتردد على الأسواق أو الأزقة وأنت تعلم أنني لا أمكث في البلدة كثيرًا نظرًا لكثرة مشاريعنا، ولكن سمعت عن أمر ذلك الضريح الذي يسمى بالنعمان وتهافت الأنصار إليه، لكن صدقني يا سيدي إن من فعل ذلك هم عائلة الكيال.

أوما الحاج برأسه وهو يأمر (عماد) أن يذهب به إلى شيخ البلدة (محفوظ) في الغد ليعلم ما قصة الضريح وذلك الرجل الغريب.

أغلق (صبري) باب بيته بهدوء شديد، كان البيت مظلمًا تمامًا فأشعل زجاجة الجاز وإذ به يرى الخيالات تندفع وتهرب في كل مكان فبدأ يستعيد بالله، وحينما نظر يمينه وجد (المعتصم) يجلس على إحدى الأرائك وبجانبه ولده الصغير ينظران له وهما مبتسمان، فاتبعت عيناه في رعبٍ لما يراه كمن ينظر إلى وحشٍ فابتلع ريقه بصعوبة وبنغمة مترجية قال في خشية:

- لقد فعلت ما أمرتني به يا سيد فريد، أرجوك.. أتوسل

إليك أن تجعلهم يتركون ولدي وزوجتي فأنا ليس لدي
سواهم.

اتسعت ابتسامات (المعتصم) وهو يتبادل النظرات المرعبة
معه ثم نظر للولد الصغير بهدوءٍ فبدأ الطفل بالتشنج في كل
أعضاء جسده وهو يعرض شفثيه بغلظة شديدة حتى سالت
الدماء منها، لم يكن الطفل يفعل تلك الأفعال عن محض
إرادته الخرة، ولكن شياطين (المعتصم) من تسكن جسده
وتحكم به وإذ بالطفل على هذه الحالة، نزلت زوجته وهي
تهرول وتشق ثيابها ثم اتجهت ناحية الطفل لتخنقه وهي
تضحك، نظر (صبري) لهم غير مصدق لم يره فقام
(المعتصم) من مجلسه واتجه ناحيته ثم نظر لزوجته
فتوقفت عما تفعل وجسدت بجانب الطفل، فتكلم: قائلاً:

- لقد أحسنت يا صبري سأتركهم لك وسأخبرك بأمر جزاء
خدمتك، عندما يعودون إلى رشدهم لا تخبرهم بما أصباهم
على مدار تلك الشهور، بل خذهم واهرب من هذه البلدة..
هذه نصيحة لك لأنني لن أترك أحداً فيها!

أوماً (صبري) برأسه في خوف شديد، كان يتفهم أمر هذا
التهديد الجاد ويستسلم للوهن ثم خرج (المعتصم) من بيته

وهو يرمي معطفه الأسود على ظهره في هدوء..

(الفصل العاشر)

يطرق على بيت الشيخ (محفوظ) شيخ عجوز نحيل يرتدي ثيابًا سوداء عليها عباءة بيضاء له عينان نافذتان بقوة كما لو أنهما تخترقان روحًا ما أمامها وشارب رفيع طويل ولحيته تكاد تبلغ بطنه وعلى رأسه عمامة ضخمة يستند على عصا خشبية، وعندما فتح تهلل وجه الشيخ (محفوظ) وقال:

- مرحبًا بشيخنا الغالي، مرحبًا بالشيخ سليمان تفضل!

ابتسم الشيخ (سليمان) وقال:

- مرحبًا يا محفوظ.

دخل الشيخ (سليمان) برفقة (محفوظ) وجلس على الأريكة وقال:

- كيف حالك يا شيخنا وحال قرية الضاحي؟ لم أزرها منذ أشهر.

- الحمد لله ولكن أخبرني ما بك يا محفوظ لقد قلقتني عليك!

تنهد (محفوظ) وقال:

- تغيّر حال القرية الناس هنا يتضرعون لضريح يسمى بالنعمان..

قاطعته الشيخ (سليمان) وقال متلهفًا:

- ضريح النعمان ومن بناه؟؟

- بناه رجل يدعى فريد كان من سكان أهل القرية قديمًا ويقول إنه درس في الأزهر وإن النعمان كان رجلًا من أولياء الله وله كرامات.

تنهد (محفوظ) وأكمل:

- لقد تغير كل شيء لقد تغيرت طباع الناس، تركوا الصلوات والذكر وظلوا يعتكفون في هذا الضريح..

أثناء كلامه طرق على باب البيت.. (ابراهيم نصار)
(عماد)، ففتح لهم واحد من أولاد (محفوظ) وضايفهم
فدخلوا إلى الصالة ليجدوا الشيخين جالسين فهموا للجلوس
معهما ورخّب بهما (محفوظ) وعزّفهم على الشيخ (سليمان)
وظلوا يتحدثون عن أمور البلدة حتى تكلم (إبراهيم) وقال:

- كفى كلامًا عن المشاغل ومتاعب الحياة يا محفوظ
وأخبرني ما أمر الضريح الجديد هذا ومن الذي بناه؟

تنهد الشيخ في وهن شديد وقال وهو يهز راسه:

- كما كنت أقول للشيخ سليمان.. الناس يا حاج هنا تركوا
العبادة لك أن تتخيل أن صلاة الجمعة لم تعد تتعدى العشرة
أشخاص بعد بناء هذا الضريح، يدعونه بضريح النعمان
ويزعمون أنه ولي من أولياء الله والذي ادعى تلك الفكرة هو
رجل أتى من أشهر معدودة يدعى فريد ويزعم أيضًا أنه
حفيد الحاج عبد الحميد السباعي أنت بالتأكيد تعلمه، ولكن
صدّقني لا أعلم ما أمر هذا الرجل فهو يفعل الخير لأهل
القرية ولكني سألته ذات يوم عن النعمان فأعطاني مجلدًا
لأقرأه يتحدث عن سيرته، وفي هذا المجلد مجموعة من
الروايات تقص عن حكايات وأساطير عن هذا الرجل لم

يصدقها عقلي، فكيف لرجل صالح مثل النعمان هذا لم يخلد اسمه في التاريخ مع التابعين، ولكني عزمت ألا أخطو خطوة إلى هذا الضريح.

كان الحاج (إبراهيم) يتامل كلام الشيخ (محفوظ) بعناية..
ثم قال:

- أتعلم.. كنت أخشى لما أنوي فعله اعتراضك ظنًا مني أنه ضريح لأحد الصالحين، ولكن الآن هدأت واطمأنت نفسي.. فأنا سأهدم هذا الضريح ابتغاءً لرضا الله.

تعجب الشيخ من قول الحاج وقال:

- أنا لا أفتي في هذا الأمر في وجود الشيخ سليمان، ولكن دعني أقول لك إنك غائب عن البلدة يا حاج إبراهيم الناس يقدسون ذلك الضريح ولن تقدر على غضبهم.

- هذه مسؤوليتي أنا يا شيخنا إذا وافق الشيخ سليمان..

تكلم الشيخ (سليمان) وقال:

- أعانك الله على هدمه يا حاج إبراهيم.

فتهلل وجه (عماد) والحاج وحينها سأل (محفوظ) وقال:

- وماذا ستفعل في غضب الناس يا حاج إبراهيم؟

فنظر إليه وقال:

- اعذرني من سيكشف أمري فهو سر بيننا؟ أم أنت غير
جدير لحفظ هذا السر؟

طأطأ الشيخ راسه ثم قال:

- أنا لم أسمع شيئاً ولا دخل لي من الأساس.

ضحك الحاج (إبراهيم) وقال:

- وهذا ما كنت أود سماعه.

أنهوا الحوار مع الشيخ وخرجوا وهم يودعونه وتركوه مع
الشيخ (سليمان)، فتح (عماد) الباب الخفلي للسيارة وهو

يشير للحاج بالدخول، ثم أغلق الباب وذهب ليستقل السيارة
وبعد أميال معدودة تحدّث (عماد) للحاج (إبراهيم) قائلاً:

- ما الذي يدور في رأسك يا حاج؟

نظر الحاج من زجاج السيارة وهو يتحدث:

- إن فريد هذا مجرد أداة لفؤاد الكيال.. فؤاد يلاعبني يا
عماد فهو من أضّر أرضي فقد أجر بعض الناس لتوهم
وتخدع أهالي البلدة بكرامات مزيفة ليكسب ودهم في
الخفاء حتى أثر على صبري حارث الأرض، فعندما قال له
الرجل الذي يؤجره الكيال إنه سائل من النعمان لم يتردد
على نيل البركة فتبور الأرض وتذبل الأشجار ويبيع هو
محاصيله بدون منافس، وحارث الأرض قال إنه شاهد هذا
الرجل يتردد على بيت فؤاد الكيال، سأهدم هذا الضريح
وبعد ذلك أخذ حقي منه فاجمع الرجال الآن وتولّ هذا الأمر..

لم يصعد (عماد) إلى السيارة وذهب في جمع الرجال لهدم
هذا الضريح في الليل وهو حريص ألا يراهم أحد كي لا
يفسد ما خططه الحاج (إبراهيم) وحين انتهى ذهب إلى
الحاج إبراهيم.

وكان الحاج (إبراهيم) ينتظره في استراحته ينظر لأرضه البالية وهو يتأفف، اطمأن على هدم الضريح وما خططه نُفذ، أغلق النافذة المطلة للأرض ومدد على سريره وهو يسحب الغطاء عليه ويفكر فيما سيفعل لكنه استفاق على صوت لعواء آتٍ من الخارج، كان عواء أشبه لعواء الكلاب المشردة ففتح عينيه ليجد النافذة مفتوحة والغطاء بعيدًا عنه، الجو كان باردًا وصوت العواء كان في الخارج مما أثار دهشته، قام من سريره وهو يلف على جسده عباءته ونظر من النافذة المفتوحة فرأى ما زاد في نفسه البرد والقشعريرة، شاهد شيئًا يركض بين الأشجار بسرعة غريبة، شيئًا أسود كبيرًا وصوت العواء ما زال مستمرًا، وفي لحظة وجد نورًا آتيًا من وسط الأرض، ولكن سرعان ما اكتشف أنه ليس بنور بل نار، نار تحرق الأشجار فأخذ يصرخ:

- يا عماد.. يا عماد أين أنت يا معتوه.

سمع خطواته تصعد على السلم.. تنفّس بصعوبة وهو يفتح الباب وعلى وجهه أثر علامات الإرهاق والرعب فتحدّث مسرعًا:

- ما الأمر يا حاج إبراهيم؟

صرخ فيه الحاج قائلاً:

- أنت نائم والأرض تحترق.

شهق (عماد) وقال في تعجب وهو ينزل مسرعاً في اتجاه الأرض قائلاً:

- الأرض تحترق!!

أما الحاج (إبراهيم) نزل مسرعاً للدور السفلي ليملاً الماء، ولكن سرعان ما عاد إليه (عماد) وهو غير قادر على أخذ نفسه وتحدث بصعوبة وهو متعجب قائلاً:

- يا حاج، الأرض بخير ولا توجد نيران؟

أصاب كلام (عماد) الحاج بالصدمة فاقترب ناحيته ممسكاً برقبتة قائلاً في غضبٍ شديد:

- كيف لا توجد نار؟ لقد رأيتها بعيني...

- صدقت يا حاج.. صدقت ولكني حينما ذهبت إليها انطفأت دون أن أمسها، ولكني وجدت شيئًا أريدك أن تراه بعينك.

أنزل الحاج قبضته من (عماد) وذهب معه ناحية الأرض فوجد جملة على إحدى الأشجار مكتوبة باللون الأسود «أتظن أن هدمك للضريح سيمر بتلك السهولة؟ ستنال عقابك يا ابن إسماعيل النصار» اقترب الحاج (إبراهيم) من تلك الشجرة وهو يهز رأسه غير مصدق لما يقرأه فنظر إلى (عماد) الذي يشك أنه أفسد ما يخططه:

- من رآك وأنت تهدم الضريح؟

- صدقني يا حاج لم يزني مخلوق..

مسح الحاج (إبراهيم) بيده على شعره وذهب إلى الاستراحة يفكر في الأمر وعلى وجهه أمارات الرعب الشديد.

شوارع القرية كلها ممتلئة عن بكرة أبيها، الناس خرجوا من بيوتهم خائفين من دخولها مفزوعين لما أصاب جدرانها، فكل البيوت تلتطخت باللون الأحمر يقول البعض إنها دماء النعمان

ومعلق على كل بيت كلب أسود مسلوخ تخرج الدماء من فمه، أما بعض البيوت قد اشتعلت بها النيران، كان العرافون والدجالون يطوفون بين الناس ويخبرونهم أن الخراب قد حلّ فتكاثرت الجموع عند بيت العمدة وتدافعوا نحوه يطلبون منه النزول لحل هذا الأمر، أما القلة القليلة ذهبوا إلى المسجد لصلاة الجمعة.

صعد الشيخ (محفوظ) إلى المنبر ليخطب في عددٍ لم يتجاوز العشرة أفراد وقال:

- يا عباد الله ، إن قريرتنا تفسّى فيها السحر والسحرة والشياطين بيننا ولكنهم لم يضرّوك إلا بأمر من الله، فيا عباد الله ارجعوا إليه وتمسكوا بدينكم واثبتوا ولا تخافوا من كيد الشيطان فإن كيده كان ضعيفًا.. الله هو الشافي وهو العافي وهو رافع البلاء لا تتجهوا إلى البدع والخرافات وتؤمنوا بالغيبيات فتشركوا بدون الله.. ما يحدث في قريرتنا الآن لم أره حدث قبل ذلك من سنين طويلة وانتقم الله من صاحب تلك الأفعال أشد الانتقام، فقد حرق أمام عيني وأنا صغير.. يا عباد الله إن هذا ابتلاء فاثبتوا على دينكم ولا تكونوا جازعين.

ظل الشيخ (محفوظ) يرّد خطبته وكان (صبري) يجلس في ركن من المسجد وهو يبكي وينظر إلى الشيخ ويسأل في نفسه «هل يقبل الله توبتي؟» أما الجمع الغفير عند بيت العمدة (فؤاد) الذي كان صامئًا لفترة طويلة حتى أطلق رصاصة من بندقيته فهدأت الناس ليتكلم بصوت عالٍ:

- إن من أمركم ببناء الضريح هو من سيكشف لكم من هدمه، الأمر بسيط فابحثوا عنه.

بدأت الناس تبحث عن (المعتصم) والذي يدعونه (فريد) حتى ظهر بين الناس وهو يخطو بخطوات بطيئة بين الجموع، ظلّت الجموع تلتف من حوله فرفع يده إلى السماء وهو مغمض عينيه، ظلًا يراقبانه عن كثب الشيخ (محفوظ) و(سليمان) حينما تكلم (المعتصم) قائلاً:

- إنني علمت من هدم الضريح..!

صاحت الناس في فرحة وتهليل وهم متشوقون لمعرفة من سبب تعاستهم.. فأكمل (المعتصم) حديثه:

- لكن لن أخبر بأمره إلا إذا حُرّق هو وأهل بيته جميعًا جزاء

لما فعل حتى لا تصيبكم لعنة سيدي النعمان فإنه يتوعد لكم
وما حدث من أمس إلى الآن جزءٌ ضئيلٌ جدًا مما ينوي فعله،
فأنتم لم تروا منه سوى الخير وبادلتموه الحسنة سيئةً فبئس
مصيركم..

صاح الجموع مرة أخرى طالبين من (المعتصم) إخبارهم
من الفاعل من هادم الضريح، ابتسم (المعتصم) واحمرت
عيناه قائلاً:

- قبل أن أخبركم.. تضرعوا في اتجاه الضريح لعل سيدي
يغفر لكم..!

بدأت الناس تدعي باسم النعمان وتتضرع إليه، فصاح
الشيخ محفوظ وهو يقول:

- يا عباد الله... ماذا تفعلون! أتدعون لغير الله ماذا أصابكم؟

ظلاً يراقب هذا المشهد الشيخ (سليمان) هو يتخفى بين
الناس لا يريد أن يراه (المعتصم).

كان (المعتصم) يبتسم لسيدة (النعمان) الذي يراه جالسًا

لما فعل حتى لا تصيبكم لعنة سيدي النعمان فإنه يتوعد لكم
وما حدث من أمس إلى الآن جزءٌ ضئيلٌ جدًا مما ينوي فعله،
فأنتم لم تروا منه سوى الخير وبادلتموه الحسنة سيئةً فبئس
مصيركم..

صاح الجموع مرة أخرى طالبين من (المعتصم) إخبارهم
من الفاعل من هادم الضريح، ابتسم (المعتصم) واحمرت
عيناه قائلاً:

- قبل أن أخبركم.. تضرعوا في اتجاه الضريح لعل سيدي
يغفر لكم..!

بدأت الناس تدعي باسم النعمان وتتضرع إليه، فصاح
الشيخ محفوظ وهو يقول:

- يا عباد الله... ماذا تفعلون! أتدعون لغير الله ماذا أصابكم؟

ظلّ يراقب هذا المشهد الشيخ (سليمان) هو يتخفى بين
الناس لا يريد أن يراه (المعتصم).

كان (المعتصم) يبتسم لسيدة (النعمان) الذي يراه جالسًا

على كرسي وحوله الكثير من المردة والجان لا يراه سواه،
ظل يردد الشيخ (محفوظ):

- اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منّا..

كان (صبري) يحمل حقيبتة وفي يده الأخرى طفله الصغير
ومن خلفه زوجته، التقت عيناه بعين (المعتصم) فوجد
(المعتصم) أن بعضًا من أتباعه من المردة تنظر إلى (صبري)
بضيق شديد، أمرَ واحدًا منهم أن يخبره بالأمر فقال له:

- لقد كشف سرك إلى الشيخ محفوظ اليوم، قال إنك ساحر
وإنه عمل معك..

احمرت عين (المعتصم) وهو يتمتم بعزائمه.. فلم يحدث
إلى (صبري) أي شيء فبدأ يردد وصبري يخرج من القرية
ولم يحدث أي شيء مرة أخرى، نظر (المعتصم) لأتباعه
فوجدهم عاجزين.. حتى تكلم واحد منهم:

- كلما تقترب منه نجد نورًا يكاد أن يحرقنا.. دعك منه الآن
الناس تنظر إليك!!

تلهفت الناس لمعرفة من هادم الضريح، فنظر (المعتصم) لبيت العمدة (فؤاد) وشاور بيده على البيت وقال:

- العمدة مَنْ أمر بهدم الضريح.

اندفع الناس كالجراد المنتشر نحو بيت العمدة والذي بدت على ملامحة الدهشة لما سمعه وهو يصرخ:

- أنت كاذب.. كاذب، لا تصدقوه.

كسرت الجموع البوابة الرئيسية لمنزله وهو ممسك ببندقيته، دخلت الناس في فناء البيت وهو يشير ببندقيته على الجموع لكنه سرعان ما أنزلها وهو يهز رأسه بيأس والدموع تنهمر على وجهه.. بعد لحظات معدودة كسروا الباب وبدأوا يدفعونه ويجرونه على بلاط الأرضية ويسحبون زوجته وطفله وهم يلعنونها بأقبح الألفاظ، بدأ الجموع بضرب العمدة بالسكاكين فسالت دماؤه وبعد ذلك سكبوا عليه البنزين.. وأشعلوا النار في أبيه وهم يصيحون قائلين:

- مِتْ يا عدو الله..

كان مشهدًا طبق الأصل لمقتل والد (المعتصم)، يراقب (المعتصم) المشهد وهو يطوف حول الناس ويراقب تصرفاتهم! الناس التي قتلت أباه لأنه ساحر دجال وينصرون دين الله؟ هم نفس الناس التي تنصاع إلى ابن ذلك الرجل..

يضحك (المعتصم) وهو يشاهد ابن من ساهم في قتل أبيه يحرق بنفس الطريقة، يسأل في نفسه هل يدفع هذا الرجل المسكين ثمن ما اقترفه والده؟ هل هذا عدلٌ بالنسبة له؟ كان شيئًا في ضميره للحظة ولكنه وجد شيطانه يردّ عليه «وما كان ذنبك أنت فيما اقترفه والدك من البداية؟ لمّ الناس ابتعدت عنك؟، لمّ نعتوك بابن الساحر وأنت لمّ تسحر أحدًا؟ لمّ رفضت عندما كنت تريد الخطبة من محبوبتك؟ لمّ طردت من عملك؟ ولمّ عشت سنوات من الجوع والفقر؟» ابتسم (المعتصم) بتهكم على هؤلاء الناس الذين يجرون سيادة وطفلها دون رحمة ويسكبون عليها البنزين، نظر (المعتصم) في عين الطفل الخائف فاقترب منه وقال:

- أيها الناس، إن النعمان قد تنازل عن قتل ذريته واكتفى بدمه..

ضحك في سخرية لما سيقوله للتو وهو يتجه إلى الأم

- دعوهم يرحلون، ولكن حرمت عليكِ القرية يا صفيية أنت وأولادك، وإذا رآكم أحدٌ في القرية وعلمنا سيكون مصيرك ومصير أولادك مثل زوجك أفهمتِ يا امرأة هذا أمراً ليس من عمدة البلدة هه بل من سيدي النعمان.

(الفصل الأخير)

يجلس (إبراهيم) في استراحته حينما دفع الباب عليه (عماد) وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة قائلاً:

- لن تصدق ما الذي حدث في القرية؟

أخذ (عماد) يروي قصة مقتل العمدة (فؤاد الكيال) على يد الرجل الغريب بسبب هدمه للضريح، اتسعت عينا الحاج من الرعب واقشعر بدنه لهول ما سمعه لأنه يعلم أن العمدة لم يهدم شيئاً والرجل الغريب الذي يدعي (فريد) بالنسبة له كان يظن أنه يعمل لديه فقال بقلق شديد:

- سنترك القرية الآن وسنذهب إلى القاهرة، أحضر لي السيارة.

خرج (عماد) وهو يومئ برأسه تاركاً (إبراهيم نصار) في حيرة من أمره، كل التهديدات التي رآها تجول في خاطره إنها من ذلك الرجل.. لكنه يحدث نفسه قائلاً: «إذا كان يريد أذيتي لم يقتل العمدة فأنا من هدمت ضريح النعمان هذا»،

قطع شروده صوت صرخة مفزعة هزت قلبه آتية من الخارج، كان صوت (عماد) فنظر من نافذة الدور العلوي الذي يقطن فيه وهو يردد:

- عماد، ما الأمر؟.. عماد.. عماد....

ظلاً يردد اسمه كثيرًا ولا أحد يجيب فقرر تفقد الأمر بنفسه وحينما التفت وجد (المعتصم) جالسًا على سريره وهو ينظر له بعين مخيفة فرآه الحاج (إبراهيم) والرعشة تصيب جسده، حاول جاهدًا أن يجمع ما تبقى منه من قوة وقال وهو متلعثم:

- مم... مَن أنت!

- يقولون هنا إنني فريد، لقد أطلقت هذا الاسم على نفسي لأنني فعلاً فريد من نوعي، ولكن هذا ليس اسمي الحقيقي، أتعلم يا إبراهيم أنت لم تتغير منذ تلك السنوات فأنت جبان كعادتك، التغير الوحيد أن الناس يدعونك حاج، هل حقًا حجيت؟

رفع (إبراهيم) حاجبه قائلاً

- أتعرفني!! مَنْ أنت؟

- نعم .. عز المعرفة! سأخبرك شيئًا لا تعلمه، قصة حدثت في الماضي، كنت أنا ضحيتها!.. فلا تتعجب الآن عن سر وجودي ولكن أنصت لما ستسمعه بعناية.

يجلس (رجب) مع (نفيسة) حينما طرّق عليه الباب رجل ثمين، أخرج إلى (رجب) مئات الجنيهات ووعده بالشهرة والنفوذ ووافق (رجب) على الفور حينما سمع بكاء طفله الصغير، وافق على هذا العرض مضطرًا فلم يأكل ولده لأيام، وتحول من رجل طيب إلى ساحر يظنه الناس أنه رجل مبروك وله كرامات، استخدمه ذلك الرجل لمصلحته ولمنافسة قرنائه من التجار، كان (رجب) قريبًا من الأعيان وعلية القوم يدخل البيوت والمناسبات الخاصة بهم ويلقي الخُطب والمواعظ ولكن لا يدوم الحال.. فطلب منه الرجل أن يقتل أحد التجار فرفض (رجب) ذلك المطلب فسرعان ما انقلب عليه ذلك الرجل وأوشى به وخدعه وقال له:

- حسنًا يا رجب اصنع لي حجابًا يسهل حركة تجارتي.

أوصاه هذا الرجل أن يعطي الحجاب لرجل يدعى (عبد التواب) يعمل عنده في أرضه الزراعية، ذهب الأخير متخفياً في أوج الليل بثعبان صغير وجعله يقرص طفلة، وفي الصباح تفاجأ أهل الطفلة بموتها مسمومة وبجانبها ذلك الثعبان وورقة بخط رجب، وعندما اكتملت الخطة ذاع الرجل الواشي خبر أن الطفلة سُحِرَتْ بفعل (رجب) فانتشر الخبر.. واجتمع الجموع وخطب فيهم شيخ القرية (سعيد) الضرير فأصبحت الناس هائجة على (رجب) وطالبين قتله أشرقلة.

أنهى (المعتصم) كلامه وسكت فتبدلت ملامح (ابراهيم نصار) للذعر وقال:

- وما دخلي أنا بهذه القصة إن كانت صحيحة من الأساس..

- الرجل هذا كان أباك إسماعيل النصار وكنت أنت في ذلك الوقت في سن العشرين تقريباً رأيتك وأنت تسكب البنزين على أبي.. أظن أنك علمت اسمي الحقيقي أنا المعتصم رجب

الطابع ولكن يمكن لك مناداتي بقابض روحك.

سمع الحاج (إبراهيم) كلام (المعتصم) فظلَّ يصرخ وهو يرجع بقدمه للوراء:

- مَنْ قال لك هذا الكلام الفارغ؟

- كنت أظن في البداية أن والدي قد سحر الطفلة فعلاً، وكنت أيضاً ستموت لما اقترفته ولكن..

اقترب منه (المعتصم) وهو يمسح بيده على لحيته ويضحك بطريقة مبالغة ثم أكمل قائلاً:

- عندما ذهبت لصبري لأعاقبه على ما اقترفته.. قال لي!!

يخطو (المعتصم) خطوات بطيئة في أوج الليل ويدق على باب، يفتح له (صبري) الباب ليجد أمام ناظره رجلاً بجلباب أسود وحاملاً على كتفه وشاخاً شديد البياض، ولحيته بها بعض الشعيرات البيضاء وعينان لونهما أسود قائم تكادان

تنظران إليه بتحديق غريب وفم مرتسم بابتسامة مصطنعة
ويعلوه شارب سميك فارتعد (صبري) فلاحظ ذلك
(المعتصم) وقال:

- لم ترتعد هكذا يا صبري؟

- ماذا تريد يا رجل في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

دفعه (المعتصم) بهدوء ودخل إلى البيت ثم نظر إليه نظرة
حادة بعينه القاتمة وقال:

- لماذا تقول للناس إنني لست حفيد عبد الحميد السباعي؟

- لدي نظرة بالناس!! وأنت لست حفيده!..

شعر (المعتصم) أن (صبري) يخفي أشياء كثيرة.. فبدأ
يتمتم بكلامه لأتباعه! مما جعل (صبري) يتلفت يمينًا ويسارًا
غير مدرك لما يحدث من حوله وغير مصدق للأصوات التي
بدأت تحيط بالمكان! فاقشعر بدنه وبدأ معصم يده
بالارتجاف وهو يقول بصوت مرتعد:

- مم.. مَن أنت !

وجد (صبري) صراخ زوجته آتياً من غرفة نومهم بعدما أنهى جملته ولم يمر كثير من الوقت حتى علم أنه يتعامل مع الشخص الخاطيء، فبدأ يستعطفه وهو يطلب منه الرحمة، وعلم (المعتصم) أن صبري ابن (عبد التواب) وقد توارث تلك المهنة من أبيه، وبدأ يسرد له ماضي (إسماعيل نصار) والذي أخبره به والده..

أنهى المعتصم حديثه وهو يقترب من (إبراهيم نصار) واهتزت المصابيح وظلت تتهامس أصوات اتباعه، وأصبح الرجل يستعطفه ويترجاه وينادي على (عماد) لينقذه من هول ما يرى.

اجتمع أهل القرية في المساء عند الاستراحة، فأوا (الحاج إبراهيم) يتدلى بجسده مشنوقاً وعارياً تماماً وعلى جسده آثار الحروق ويطل عليهم من الدور العلوي.. يجلس على الأرض (عماد) وعيناه تنهران بالدموع غير مصدقٍ لما يراه ويردد جملة وقد فقد عقله:

- أنا جبان.. أنا من تركته وسط الشياطين.

خرج (المعتصم) من بيت (إبراهيم نصار) حاملاً وشاحه فوق رأسه يفكر في وجهته المقبلة ولا يعلم ما الذي سوف ينتظره بعدما شعر أن أمره سيكشف عما قريب في القرية، ظلَّ شاردًا حتى وصل إلى بيته وخلع جلبابه.

ودخل غرفته ليخلو بشياطينه، سمع (المعتصم) صوت طرق الباب فنهض ليفتح فوجد الشيخ (محفوظ)، ابتسم (المعتصم) وقال:

- تفضل شيخنا الغالي.

- زاد الله من فضلك يا فريد، أردت معرفة شيء سريع منك، ولن أضيع من وقتك الكثير..

دعاه (المعتصم) للدخول فاستجاب الشيخ وجلس على أحد الكراسي:

- أتذكر أول سؤال سألته لي حينما جئت لبيتي؟

حك (المعتصم) جبينه وهو يهز رأسه بالنفي قائلاً:

- لا، ذكرني..

- قلت لي إنني كنت أسكن على ضفاف الترعة وابني قال إنك كنت تتأمل البيت بعناية؟ وأخبرتكم أنها قصة طويلة لا أريد إزعاجك بها، ولكني الآن وجدت بعض الوقت لأخبركم بها، أتريد أن أقصها عليك؟

- بالطبع يا شيخ محفوظ...

- هذا البيت كان لعائلة قديمة ووالد هذه العائلة كان ساحراً فاسداً، اجتمع الناس ذات يومٍ لسحره لطفلة صغيرة وقتلوه أشرّاً قتلته ولكن تركوا أمّاً وطفلين صغيرين، يقولون إن الطفل هذا كبر وأصبح مبروكاً ويصنع الكرامات! لكنهم أيضاً يقولون إنه حرق في منزله ألا تعلم شيئاً عن هذا الرجل بصفتك رجل مبروك..

قالها الشيخ (محموظ) بتهكم وهو يرفع حاجبه، وقد علم (المعتصم) أن الشيخ علم أنه ساحر أخبره شياطينه أن (صبري) أوشى به وأراد التوبة، ولكن ما وتره أن الشيخ

(محفوظ) يقول هذا الكلام لأنه كشف أمره وعلم من هو،
توتر (المعتصم) وهو يعلم أن أتباعه لن تقدر على أذية هذا
الرجل وقال:

- لا لا.. لم يصادفني ذلك الرجل أو أخبرني بقصته أحد.

ظلَّ الشيخ صامئًا مبتسمًا وهو يتأمل ملامح (المعتصم)
المرتبكة حتى قام من مجلسه وقال:

- لماذا امتنعت عن زيارتي يا فريد؟

- لم أمتنع، ولكن أنت تعلم مشاغل الحياة!

- نعم نعم، أعلم.. وأنستني أيضًا متاعبها عن صلاة المغرب..
أصليت المغرب يا فريد؟

قالها الشيخ (محفوظ) بسخرية عارمة، مما جعل توتر
(المعتصم) يزداد ولكنه هز رأسه بالإيجاب:

- نعم.. أذان العشاء اقترب يا شيخ محفوظ، أنصحك بأن
تذهب لتقضي ما فاتك من صلاة!

- معك حق.. ولكني إذا ذهبت إلى بيتي لا أعتقد أنني سأقضي صلاة المغرب! فأعطني مصلاة من عندك لأصلي المغرب هنا!

قالها (الشيخ) منتظرًا رده وهو يحدق بعينه في (المعتصم) الذي ارتجف عندما سمع هذا الطلب، فبيته لا توجد به مصليات.

- بالتأكيد.. بالتأكيد يا شيخ فالبيت بيتك! سأذهب لأجلب لك مصلاة.

قام (المعتصم) من مجلسه واتجه لغرفته وهو لا يعلم ماذا يفعل ظل ينطق بكلماته عسى أن يستجيب له اتباعه وتنقذه تلك الورطة!.. ولكن لم يستجب له أحد فاهتدى لأمر ما، عندما وجد فرشًا يشبه المصلاة فأخذها وذهب بها للشيخ.

- تفضل يا شيخ محفوظ.

- ألن تصلي معي يا شيخ فريد؟ إن كنت قد صليت المغرب فصله معي قضاء ما فاتك ولتمنحني أجر صلاة الجماعة بالله عليك.

- حسنًا..

فرش الشيخ محفوظ المصلاة وبدأ يردد الإقامة، وأصبح (معتصم) يرتعد من ذلك الأمر، بدأ (محفوظ) في ذكر الفاتحة فأصبح المشهد ضبابيًا للمعتصم وازدادت الكيانات في المكان، أصبح يراهم من حوله فبيته لم يذكر فيه اسم الله ولو مرة، ركع محفوظ فرقع وراءه (المعتصم) رغبًا عنه وهو يفكر في أمر السجود! لم يسجد لله منذ سنين طويلة حتى وإن كانت سجدةً مزيفةً، وجدَ شياطينه تتراقص أمام عينيه.. وأصوات ضحكات وبكاء أطفال خارجة من غرفته، كان الشيخ (محفوظ) يركز في صلاته ولكنه بدأ يتابع اهتزاز المصباح الكهربائي فأغمض عينيه وهم بالسجود، ولكن (المعتصم) لم يستطع! خافت نفسه أن تؤذيه شياطينه التي يراها بمفرده، فخرج من الصلاة وشعر به (محفوظ) واستقام للركعة الثانية وشرع بقراءة سورة الجن، مما جعل الشياطين تهرع من المكان غير قادرة على سماع كتاب الله،

بدأ (المعتصم) يتساءل في نفسه «هل حقًا يمتلك قوة لا يضاهاها أحد مثله ولكن كيف؟ كيف وأتباعه يهرعون من رجل ضعيف يذُكر فقط كلام الله؟ وغير قادرة على مسّه! أمّا

هو من يخلص لهم؟ مَنْ يتضرع لهم من يبجلهم يسخطون عليه ويخيفونه».. ظلَّ يفكر في نهاية أبيه! حتى انتهى (محفوظ) من صلاته.

وخرج من البيت دون حديث ولم يحاول (المعتصم) حتى أن يودعه كان يعلم أن أمره قد كُشف للشيخ من (صبري) وتأكد منها ورآه بأم عينه رؤية لا شك فيها.

راقب الشيخ (سليمان) خروج (محفوظ) فدف إلى بيت المعتصم!.. وجده جالسًا يفكر فقطع شروده قائلاً:

- السلام عليك يا ابن رجب.

- من أنت؟

- ألا تتذكرني؟

ارتعد (المعتصم) من وجه هذا الرجل المشع بالنور.

- أنت؟ أنت مَنْ جئت لي منذ سنين وأخبرتني قصتك!

- نعم! تذكرني الآن..

- وماذا تريد مني يا هذا؟

- مثلما قلت لك أول مرة أن وجودي لن يزعجك، ولكنه سيزعجه هو وأتباعه؟

تقدّم الشيخ (سليمان) بخطوات بطيئة وهو ينظر في عينيه، وأكمل قائلاً:

- أنت مجرد أداة في يده وستكون أول الخاسرين في الدنيا والآخرة.. اخلع هذا الخاتم وكفاك وأحرق ذلك الكتاب.. كفاك يا ولدي واعدل عن هذا وتوب إلى الله لعنّي أكون مصدر توبتك!

ضحك (المعصم) من أعماق قلبه وجلس على الكرسي ونظر في عين الشيخ وقال:

- توبتي..؟ أنت لا تعلم أي شيء عني.

اقترب الشيخ من (المعصم) ببطءٍ متسنِّدًا على عصاه

وقال:

- ولمَ لا أنت تظلم نفسك وتقسو عليها فكلنا عباد الله، وكلنا أبناء الأرض وسندفن تحتها ونعرض عليه مهما عشنا سنين أبدية لن ينفعك النعمان حينها! بل هو أول من سيتبرأ منك ومن أفعالك و...

قاطع (المعتصم) الشيخ في ذهول:

- النعمان!! ومن الذي أخبرك به؟؟

- قلت لك من قبل أنا أعلم كل شيء عنك وكل ما تفعله لن يكون سوى قطرة من بحر ذنوبي، ولكن برغم كثرتها تغلبت عليه!..

استشاط (المعتصم) غضبًا واندفع قائلاً:

- أنت لا تعلم عني أي شيء! لا تعاود هذه الجملة مرة أخرى يا رجل!!.. وأنا لا أريدك هنا اخرج من منزلي ..

ابتسم الشيخ وقال:

- إن خرجت من هذا الباب ستكون نهايتك مثل أبيك!.. الله يرسل لك إشارات فاستغلها من منذر بعقاب أليم!!

ضحك (المعتصم) والتفت بجسده ليعطي الشيخ (سليمان) ظهره قائلاً:

- لماذا؟ لماذا كتبت على هذه الحياة!.. تقول إنك تعلم عني كل شيء، صحيح؟ أجبني الآن، اجلس يا رجل وأجبني على أسئلتني !!

هرع (المعتصم) على كرسيين وحملهما باستعجال ووضعها للشيخ وجلس على الآخر وهو ينظر بعين ساخطة:

- اجلس.. اجلس يا رجل وأجبني! لماذا يُقتل أبي أمام عيني بدون شفقة أو رحمة!.. لماذا لم أعش طفولتي.. لماذا كُتِبَ عليا الشقاء والعناء.. ولماذا كنا نُطرد من أراضى الله كما تقول كالجرذان؟

أخفّض صوته وهو يشرد بعينه وترقرقت عيناه بالدموع وقال:

- لماذا لم أتزوجها؟.. لقد أحببتها!، شعرت عندما رأيتها أول مرة أنها ستنسيني كل كبد الماضي؟ كل شقاء الماضي.. بها كنت سأتجاوز كل هذا الحرمان ولكن كُتِبَ عليّ أن يطمس بي كل صفحات الماضي.. وتقول لي أتوب! أجيبني بدلاً من ابتسامتك البلهاء هذه!!

- سأجيبك! ولكن إن كُنتَ حقًا تسأل، أما إن كنت تبرر لأفعالك وتريح ضميرك فلن تنفعك إجابتي.

اعتدل الشيخ على كرسيه وأكمل ناظرًا إليه:

- الدنيا هذه يا ولدي دار ابتلاء، دار عمل وليس فيها راحة على الإطلاق، الدنيا أسسها الصراع.. لماذا خلقك الله؟ خلقك لاختبار منه في الضيق والانفراج والسر والعلانية، الصبر والرضا وكلما صبرت بقضائه وتحملت كلما خفف من ذنوبك وارتفعت درجاتك الله لا يريد تعذيبنا ويختبرنا وصدقني لولا الشر لن يوجد الخير!

ضحك المعتصم وقال:

- إجابة نمطية يا عجوز.. أنا نفس!... نفس عادية لست من

الصالحين حتى لأصبر على كل تلك المشقة!.. أتعلم يا رجل؟

قام من كرسي وبدأ يتحرك باتجاه الشيخ (سليمان)
الجالس على الكرسي ويتابعه بأعين مبتسمة ثم أكمل
المعتصم كلامه وقال:

- عندما وضعت هذا الخاتم في إصبعي، وعندما قرأت من
ذلك الكتاب، انفرج حالي وضاع كل كرب! بل وأكثر،
احترمني الناس.. لا لا لا!! بل قدّسوني.. قدّسوني يا عجوز..
شعرت بالقوة بالهيمنة تربعت على عرش القرى.. كنت
العراف!! وكل هذا بفضل النعمان؟ والآن تأتي أنت بكل سهولة
وتقول ثب!!

- نعم ولكني سأخبرك بأمر واحد.. ماذا بعد؟.. هذا مدخله
بعد أن تظفر بالكبائر ويزينها لك ويحسنها في عينيك بل
ويطمس الله على قلبك ويزيدك فيها ماذا بعد؟ ستعيش أمد
الدهر؟ أم ستموت!.. سوف تُوارى في التراب يوماً ما ولن
ينفعك سوى عملك!.. نهاية ابن آدم واحدة يا ولدي، ولعلي
سبب هنا لأرشدك على الطريق الصحيح، لأنني كنت مثلك
يوماً ما!.. فعلت ما لا يخطر على بالك! والآن أشكر الله على
هدايتي..

ظَلَّ يفكر (المعتصم) وأحس أن عين الرجل صادقة، ظل شاردًا يمر شريط حياته أمام عينيه ثم نظر إليه ببطء وقبل أن يتكلم صارت أنوار المصابيح تُطفأ وتشتعل من تلقاء نفسها وأصوات مخيفه تملأ كل أركان البيت لتخترق مسامع الشيخ و(المعتصم)، ظلَّ الشيخ ثابتًا وابتسامته لا تفارقه، أما (المعتصم) ظلَّ يتلفت يمينًا ويسارًا باحثًا عن مصدر الأصوات.. حتى تحدّث الشيخ وقال:

- انظر من جاء يا المعتصم؟ إنه هو!.. هل افتقدتني يا نعمان!..

سمعوا أصوات خطواته تقترب منهم فنهضا كل من هما حتى ظهر برائحته الكريهة وعينيه البيضاوين، التقت عينا (المعتصم) بالنعمان! فارتعدت فرائصه وتسمر في مكانه من شدة خوفه وقال وهو يتهته:

- أأأ.. أنا لم أفكر حتى في الأمر يا سيدي! لم أبال بكلامه..

تجاوزته النعمان وخطا خطوةً واحدةً، ولكنها كانت كافية ليصل إلى موقع الشيخ، ونظر في عينيه بنظرة حادة كانت عيناه تكلمان (سليمان) وهو غير مبالي لنظرة عينيه، و

(المعتصم) يراقب ذلك المشهد على استحياء:

- مرت سنين عديدة من آخر مرة شاهدتك فيها ياعدو الله!

اقترب منه أكثر برائحته المشمزة وعيناه المخيفتان وقال بصوت رخيم:

- أصبحت كهلاً يا سليمان ونال السن من عافيتك! بل وعقلك أيضاً لدرجة أنك تتحداني؟ ألا تذكر حينما حاول أبوك علام أن يتحداني ويعصي أمري ماذا فعلت به؟

نظر (المعتصم) للشيخ بغرابة وكأنما صعق من تلك الجملة فاندفع وقال:

- أبوه علام؟

استدار النعمان ونظر إلى (المعتصم) وقال:

- نعم.. هذا الرجل هو سبب بلائك يا المعتصم؟ لقد هجره أبوه علام! لسوء معاشرة أمه والتي حاولت قتله أكثر من مرة وفي كل مرة كنت أرسل أتباعي ليخبروا علام.. ورثبت

مكيدة لقتله من أهل القرية فأمرته أن يهجرهم، ولكن قبل أن يغادر علمت أن قلبه متعلق بطفله فأمرته أن يربط دمه بعزيمة لتحفظه له بني جنسي ونعرفه في المستقبل على مكان أبيه..

نظر له النعمان بامتعاض وأكمل:

- ولكن هذا الفتى كان متمرّدًا! فبعد أن احتويته وبعد أن ميزته على جميع بني آدم! تمرّد عليّ؟ حتى والده ظن أنه صاحب فضلٍ عليّ، والآن يأتيك هذا الرجل و يلبس عباءة رجل الدين، أنت غيره يا معتصم!

انتظره (سليمان) حتى أنهى كلامه وقال:

- ومن قال لك إنني أتنصل من أعمالِي السابقة يا نعمان؟ من قال لك إنني لا أطوف بأرض الله وأحكي عن مساوئ بني جنسك؟ ولم لا، فمنذ صغري وقد ترعرعت في وجودهم.. ذلك الطلسم اللعين والذي ربطه والدي في إحدى العزائم! طفل صغير..

تقدم الشيخ بعصاه وهو يكمل كلامه باحتداد:

- طفل صغير لا ينام الليل من أصوات بني جنسك، وحدي فقط من أسمعهم! يتحدثون في آذاني بل كنت كاللعبة تسليكم في أوقات فراغكم.. كل شيء في حياتي السابقة كان رغبًا عن إرادتي! لقد آذيت الناس وأزهقت الأرواح ولكن أتعلم؟ كل شيء تغيّر حينما كنت أحفظ أعمال السلفية في القبور.. لقد رأيت موضعي في النار! لقد رأيت نفسي! وحينها من ربيته خرج عن طوعك؟ لأنك لم تظن يومًا أنني سأتمرد عليك فأنا أعلم كل أسرارك والأعيبك..

صمت (سليمان) وكان حياته تمر أمام عينيه ثم ضحك مكملًا:

- أنت يا نعمان من علمتني إياها!.. أنت فعلاً غيري يا المعتصم! لقد نشأت في عائلة لمشعوذين فقد كان جدي يدعى اسفي كان أكبر خادم له في بلادي ويظنه الناس من أصحاب الكرامات، أتعلم يا المعتصم.. لم يفارقني يومًا موت جدي! لم أنس حينما زاغت أبصاره ووصلت روحه لحنجرته.. وحينما وضعت يدي على جسده كادت يدي أن تحترق من شدة سخونته!.. لم أكن أعلم حينها ما الذي يمر به الآن! ولكنني عذمت حين توبتي ألا أصبح مثله، لا تلقي بنفسك يامعتصم في النار!..

ضحك النعمان وهو يبتعد قليلاً والشياطين تلتف من حوله
ناظرين إلى (سليمان) و(المعتصم) بعين ثاقبة:

- النار؟.. النار تلك إن كانت موجودة افضلها على أن أكون
عبدًا في جنتك المزعومة، جنتك التي تتحدث عنها وأنت لم
ترها يومًا، أنا أفضل أن أنغمس في نقيضها؟ لماذا.. لأنني لا
أحكم عليك.. لا أهتم بعيوبكم أو عيوب بني جنسي، أنتم
سطحيون تخافون فقط من الموت..

اقترب النعمان من الشيخ وهو يحدق فيه وأكمل:

- وما هو الموت؟ الموت نوم أبدي.. نوم نستريح منه بعد
ملذاتنا، ولكن أنت تريد أن تفقد الملذات بخوفك من الغيب؟
وتفضل عذاب الحياة وعدم التمتع بها، تغمس في مشقتها
واضطهاد العدل، تطمح في أشياء عدمية بعد الحياة.

صمت النعمان وهو ينظر بعينه الواسعتين المخيفتين
إليهم ضاحكًا مكملًا:

- بلد بعيدة فوق السحاب.. لم يستكشفها أحدٌ من بعد

تسمعون عنها من حكايات العباد فتفضلون الصعب والمشكوك في أمره والسهل تحت أرجلكم فتفقدون العزم وتعيشون في عذاب الحياة.

ضحك الشيخ (سليمان) واقترب من (النعمان) أكثر وهو يقول:

- تناقض نفسك يا نعمان، الموت هو الحقيقة الوحيدة المطلقة.. حياتنا مجرد حلم، هذه هي عقدة مشكلتنا! حلم سريع وخاطف، نحن لا نخاف الموت بل نخاف هذا الحلم أن يتخلل في رقاد الموت، الموت يا نعمان هو الذي يجعل حلمك هذا مجرد هباء، قبلاً لدنياك وتباً لملذاتك... فرق كبير يانعمان بين الثرى والثريا، فوالله يا نعمان لو كان حلمك هذا يسوى عند الله جناح بعوضة ما سقيت أنت شربة ماء!

وعلى كلمات (سليمان) تخلل صوت أذان العشاء وظل يردد المؤذن الله أكبر الله أكبر

رفع (سليمان) يده باتجاه الباب وهو ينظر إليه مبتسماً وهو يعلم أنها حرب وفائز فيها قبل دخولها بعون الله.

- أسمع يا نعمان؟ الله أكبر.. الله أكبر!!

شعر (المعتصم) أنه على الطريق الخطأ، النعمان بأتباعه لم يقوَ على الشيخ (سليمان) من قبل وعندما لجأ إليه في وفاة أمه لم يقوَ أيضًا على ذلك، تأكد أن كل شيطان رجيم لا يقوى على رَجُل دينٍ ولا يتدخل فيما يأمره بقضاء الله، ندم على ما كان يفعله لكن لم يكن في وقت لهذا الندم، فقد فات الأوان... نظر (النعمان) بعينه البيضاء المخيفة إلى (المعتصم) الذي كان يرتجف وهو بدأ يردد بشفتيه بصوت هامس:

- الله أكبر.. الله أكبر!!

استشاط النعمان غضبًا وازدادت همسات الشياطين وتظهر كيانات غريبة ومخيفة تنظر إلى (المعتصم) و(سليمان)، تكلم (النعمان) بصوت جعل زجاج نافذة الغرفة ينكسر:

- علمت ما في قلبك يا ابن آدم.. بسم الهيكل القديم.. بحق الخلفاء الخمسة، بحق ثبر، وداسم، والأعور، وسوط وزلنبور..! باسمك يا ازازيل اغفر لي يا حارث وساعدني.. ساعدني!!

هبت ريح ساخنة جعلت (المعتصم) يضع يده على جبهته..
بينما ظلّ يردّد (سليمان):

- يا سميع يا عليم .. يا مَنْ لا طاعة لمخلوق في معصيتك..
أسألك يا الله باسمك الأعظم! أن تكف هذا الشر عنا! أسألك
يا الله باسم المحيط الدائم الذي ما سطع إلا بنوره الأكوان
وأمدّها بقوة وهيبة السلطان.. أسألك أن تحفظنا، فنحن
أقوياء بإيماننا بك، أسألك أن تحفظنا منهم، نعوذ بك مِمَّن
يسكنون الصحاري والمروج والجبال نعوذ بك من عبادك
الذين خلقتهم من نار السموم وأنت سامع يا الله ومجيب.

ظلّ النعمان وشياطينه يتكاثرون داخل البيت، ولكنهم لا
يقدرّون على المساس بالشيخ و(المعتصم)، فكل شيطان
يحاول الاقتراب يصرخ!.. هلل الشيخ وقال:

- الله أكبر.. احسا فلن تعلو قدرك يالعين!

نظر (النعمان) بغضب شديد إلى (سليمان) ثم استدار إلى
(المعتصم) قائلاً بصوته:

- تأكد إن لم تكن هذه تلك النهاية..

أخذ الشيخ معصم (المعتصم) الذي كان لا يصدق ما يراه
وسحبه للخارج.. استغرب (المعتصم) من ردة فعله قائلاً:

- أنا لا أفهم أي شيء!!.. إلى أين ستأخذني؟

- ستبدأ حياة جديدة يا ولدي!.. ساعلمك أمورًا روحانية،
لقد عشت أكثر من القادم لي وأنت الآن خير خليفة لي بعد
توبتك.. يستخدمك الله بدلاً من الشياطين لتكف أذيتهم فهم
أضعف مما تتصور!

نزلت الدموع من (المعتصم) وقال:

- يستخدمني الله؟ بعد كل هذا، تظن أن الله يقبل توتبي؟..
هه ولم أنا؟

- كل شيء يا ولدي به حكمة.. لعل الله جعلني سبباً لك
لترجع لطريقة ومن علامات حب الله إرسال التحذيرات
لعباده، والله يحبك ويقبلك في توبته فكلنا عباد الله! الله
أرسلني لك مرتين!

بكى (المعتصم).. ونظر إلى البيت، فوجد النعمان مع

شياطينه ملتفة من حوله!!.. خلع (المعتصم) الخاتم ورماه داخل البيت.

أكمل طريقه مع الشيخ، وأثناء سيره شاهدوا الشيخ (محفوظ) يقود جماعة كبيرة من الناس يرددون «الله أكبر» متجهين إلى منزله فاخْتَبَأَ (المعتصم) والشيخ بين الأشجار، ودخل الشيخ محفوظ إلى البيت فوجده فارغًا تمامًا ظلوا يبحثون عنه في كل أرجاء البيت ويفتشون في أغراضه فوجدوا كتبًا عن السحر وطلاسم وتعاويذ فبدأوا يحرقوها وهم يهللون، وأثناء حرقهم لتلك الكتب، وجد طفلًا صغيرًا ذلك الخاتم فدسه في جيبه وأكمل حريق الكتب مع الجموع.

(مشهد ختامي)

(بعد مرور ثلاثين عامًا)

نفوسنا البشرية واحدة لكنها مختلفة في الخصال والأصناف، وما نتج عن هذا الاختلاف أصبح مصدرًا لوجود الخير والشر ولكل منهما له جنوده وأتباعه يتصارعون في حرب ونضال في كل زمان ومكان، ومن منّا ينكر وجود الشر وتغلغله في كل صغيرة وكبيرة؟ ومصدرها واحد هو (الشیطان) هو الذي يولده ويسخر له أعوانه من الأرواح اللعينة أو طائفة من الآدميين، وجد فيهم استعداد للإنصات لهمساته وإغرائه، وجد فيهم من يمكنه أن يضمه تحت لوائه نظير وعود كاذبة وأغراض مضللة، منذ هبوط الشيطان إلى الأرض كان في جعبته الكثير لكل عاص وعاصية، ومنها السيطرة والقوة والانتقام والأنانية وحب المال وغيرها من الصفات الذميمة ولن يختفي الشر أبدًا ما دام الشيطان على الأرض..

يخطو كهل كبير بحركة بطيئة متسندًا على عصاه يرتدي جلبابًا أسود وفوق رأسه وضع وشاحًا من نفس اللون يغطي

شعره الذي اشتعل بالشيب مثله مثل لحيته، يطالع المارة في الوقت المتأخر من الليل بعينيه الغائرتين مبتسمًا يترجل وهو يعلم مقصده، حتى توقف أمام أحد المنازل وطرق الباب.

تعجب (فاروق) من الطرق في هذا الوقت فعندما قرأ تعويذته ومسح على الخاتم وقد أوشك على معرفة شيء جليل من سيده، قطع حبال جلسته وطرق على الباب، فاستقام من مجلسه بشكل ساخط وهو يقول:

- عفوًا سيدي.. سأتي حالًا لتخبرني! سأستجيب لظرق الباب وسأعود..

دلف (فاروق) من غرفته واتجه للباب وفتح فوجد رجلًا نال السن من عافيته فظهر ذلك على قوامه المنحني ولحيته البيضاء، يطالع (فاروق) بعينيه وقبل أن ينطق لسانه بحرف ابتسم (الرجل) بوجهه المجعد فاندesh (فاروق) بغضب:

- ألا تعلم أن الوقت تأخر يا رجل؟

ابتسم الشيخ العجوز وهو يقول:

- لن آخذ من وقتك الكثير ولن أزعجك ولكني سأزعج
شياطينك!

- مَن أنت!!

نظر (الشيخ) للخاتم والذي كان في إصبع (فاروق) ثم عاد
ببصره له وقال:

- ادعى معتصم.. معتصم الطواف!

سمع (فاروق) ضحكات آتية من سيده وهو يقول:

- كم تمنيت أن تعود إليّ يا معتصم!

دخل (المعتصم) وأغلق الباب على ضحكات (النعمان).